اتجاهات فى تفسير نتائج الاحتلال الفرنسى لمصر
(دراسة فى نماذج من كتابات المؤرخين الفرنسيين والأمريكيين والمصريين)

أ.د. محمد صبرى الدالى

حظى الاحتلال الفرنسى (الحملة الفرنسية)[1] بقدرٍ كبير من اهتمام مؤرخى تاريخ مصر الحديث، الأمر الذى تضاعف مع النصف الثانى من القرن العشرين، وبلغ الذروة مع حلول الذكرى المئوية الثانية للاحتلال، بل وصُوحب بضجة – وأحياناً صخب – حول حقيقة دوره فى تطور مصر الحديثة، وتباينت الآراء : فهل كان مجرد مشروع عسكرى فاشل لم يهدف إلا لإنجاز أهدافه فى إطار الصراع بين الشرق والغرب؟ أم أنه – بقصد أو بدون قصد – أدى إلى تداعيات إيجابية على الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية لمصر، ومن ثم لعب دوراً مهماً فى المشروع الإصلاحى والتحديثى منذ عهد محمد على؟. أم أنه أجهض مشروعاً مصرياً كان فى طور التكوين، ومن ثم كانت نتائجه تدميرية بأكثر مما كانت بناءة؟ [2].

وإذ تهتم دراستنا بالعرض لنماذج من الدراسات التاريخية الأمريكية والفرنسية والمصرية التى تناولت الاحتلال بشكل أساسى أو عرضى، فإن هذا لايعنى أنها تقوم بتقييم تلك الدراسات، بل بتحديد رؤيتها لنتائج الاحتلال وفهم أسباب ذلك، إن وجدت. وفى اعتقادنا أن المدخل الصحيح لمعرفة تباين المواقف من نتائج

الاحتلال إنما ينبع من عدة أمور؛ منها وجهة النظر المبدئية فى تقييم الحدث فى ظل ما قبله وما بعده من تطورات، والموقف من"مفاهيم" التخلف والجمود فى مقابل مفاهيم التطور والتحديث : فهل تقتصر تلك المفاهيم بما هو معروف عنها فى الغرب؟. ومنها الموقف الفكرى وطبيعة الأسئلة المطروحة وأهدافها وكيفية الإجابة عنها. إن الإمساك بهذه الأمور ربما تقودنا إلى معرفة المدى الذى كانت فيه كل دراسة من تلك الدراسات موضوعية فى رؤيتها لنتائج الاحتلال على مصر، وهل طال بعضها " وباء التفكير الخطأ "[3].

الكتابات الأمريكية: اهتمام دائم، وثورية أحياناً

على غير المتوقع اهتمت المدرسة الأمريكية مبكراً بتاريخ مصر فى العصر العثمانى، ربما بسبب توجهات الولايات المتحدة الأمريكية فى المنطقة بعد الحرب العالمية الثانية، ثم التغييرات الثورية فى مصر منذ 1952 وتداعياتها على الاهتمام بالتاريخ المصرى وتفسيره، وربما نتيجة للتطورات العلمية فى الولايات المتحدة وتأثر بعض مؤرخيها بالمادية التاريخية[4]. وإذا كان ستانفورد شو أنهى عام 1958 رسالته للدكتوراه " التنظيم الإدارى والمالى فى مصر العثمانية " فإن هيلين ريفلين لحقت به فى العام التالى بدراستها عن " السياسة الزراعية لمحمد على". وإذا كانت دراسة شو توقفت عند عام 1798 ولم تتناول الاحتلال الفرنسى، فإن ريفلين فى محاولتها لتقييم حقيقة أوضاع مصر فى عهد محمد على، انتهت إلى رؤية جديدة بعض الشيء لأوضاعها أواخر العصر العثمانى. ومع أنها اعتبرت الحكم العثمانى كان "رجعياً".. إلا أنها ذهبت إلى أن المجتمع كان يعيش حالة من إعادة ترتيب الكثير من أوضاعه[5]. فى الوقت نفسه أدت تفرقتها بين الأسباب الحقيقية لـ (الحملة) وبين الذريعة التى اتُخذت لإنفاذها، وتوضيحها أن أحد أسباب فشل الحملة تمثلت فى مقاومة المصريين (نتيجة كرههم ورفضهم للإصلاح على النسق الفرنسى، بالإضافة إلى البُعد الدينى والضغوط الاقتصادية وتردى الفرنسيين فى مظالم لا تختلف كثيراً عن مظالم المماليك)[6].. أدى بها هذا إلى عدم المبالغة فى نتائج الاحتلال.

لقد اعتبرت أن بعض معالم التحديث بدأت مع الاحتلال، لكنها رفضت المبالغة فى تصويرها. وهكذا لم توافق على ما تردد " فى صيغٍ مُبالغٌ فيها " بأن "الحضارة الحديثة دخلت مصر.. بجهود الباحثين الفرنسيين الذين رافقوا نابليون"، خاصة وأن " من المستحيل أن نقيس بأى درجة من الدقة تأثير أى شخص أو نظام أو حدث على مجرى تاريخ أمة ". صحيحٌ أن عمل العلماء " سيظل شاهداً مستمراً على أصالة البحث العلمى الفرنسى" ولكن " يجب الاعتراف بأن أعظم ما حققه الباحثون هو تقديم مصر للغرب أكثر من التأثير فى المصريين. وعلى كلٍ فإن ثلاث سنوات تعتبر فترة من القصر بحيث لا يمكن لُممثلى إحدى الحضارات أن يتركوا خلالها أثراً دائماً على مُمثلى حضارة أخرى. يضاف إلى هذا أن حاجات جيش الاحتلال.. كانت لها الأسبقية على الإصلاحات المثالية الطويلة الأمد التى كان يمكن أن تُحدث تغييراً ثورياً فى مصر؛ فقد تمخض المركز المالى الحرج الذى تردى فيه نابليون وخلفاه عن إجراءات تعسُفية لا تقل عن الطغيان المملوكى. ولم تتمتع البلاد إلا بفترة سلام بالغة القصر.. فمن غارات البدو، إلى معارك المماليك، إلى ثورات المدن، إلى أعمال التمرد فى القرى. وسار السخط الشعبى جنباً إلى جنب مع سخط الجيش الذى لم يكن يتلقى رواتبه أو يجد الكساء الكافى وكان رجاله متشوقين للعودة إلى الوطن بعد أن تبددت آمالهم، وأصبحوا موضع كراهية المصريين". لكنها فى المقابل ترى أنه " لو قُيِّض للاحتلال أن يستمر فربما قُدِّر لمينو ورجاله أن يتركوا فى مصر أثراً عميقاً. لكن فى ظل تلك الظروف لم يكن مُقدّراً للنفوذ الفرنسى أن يتجاوز فترة الاحتلال ما لم تُنعشه مؤثرات أخرى ". وبالتالى فالتأثير الفرنسى الذى يتم الحديث عنه لم يكن مجرد حصيلة السنوات الثلاث التى قضاها الاحتلال، بل بالأحرى " نتيجة استمرار تدفق النفوذ الفرنسى فى أشكال شتى (من فرنسيين التحقوا بخدمة محمد على، وبعثات علمية، والسان سيمونيين، والرحالة) تضافرت لكى تجعل الحضارة الفرنسية هى الأثر الأوربى الغالب فى مصر أثناء وبعد عهد محمد على "[7].

وهكذا فمع قبولها أن سياسات محمد على الخاصة بحيازة الأرض تأثرت بالإصلاحات الزراعية التى قام بها الاحتلال الفرنسى.. فإنها تشير أيضاً إلى تأثُرها بالإصلاحات العثمانية، وأن إصلاحات الفرنسيين إنما كانت وثيقة الصلة " بزيادة الدخل لتغطية نفقات الحكومة المدنية والعسكرية.. وأصبحت الحاجة إلى الإصلاح الزراعى أمراً حيوياً بالنسبة للفرنسيين عندما وجد نابليون نفسه مُعتمداً اعتماداً كُلياً على موارد الدخل المحلية، بعد أن دمر نلسون الأسطول الفرنسى.. ثم ازدادت صعوباته حين فشل فى إحراز انتصار حاسم على المماليك "[8]. ومع أن مينو "أبدى موهبةً حقيقيةً باعتباره إدارياً. ولو قُيِّض له أن يستمر طويلاً.. لأدخل على نظام ضرائب الأراضى إصلاحات أساسية لها أثرها الحاسم على حيازة الأرض ".. إلا أن ذلك كله بقى مجرد آمال وطموحات[9]. وهكذا يمكن القول بأن الرأى الذى توصلت إليه ريفلين فى تقييم الاحتلال إنما نبع من اعتدالها فى تقييم أوضاع مصر فى العصر العثمانى، وفى عهد محمد على.

وفى عام 1962نشر هيرولد كتابه " بونابرت فى مصر" واعتبره محاولة للوصول إلى " الحق الراجح " بخصوص (حملة) اعتبرها " مغامرة من أشد مغامرات العصور الحديثة إثارة للمشاعر ". بيد أن الحق عنده " لا يُظهر بونابرت ولا الجنود ولا المدنيين الفرنسيين.. فى صورة طيبة جداً " لاسيما وأنها كانت " حملة استعمارية " وأن " الجنود والمدنيين الفرنسيين الذين شاركوا فيها كانوا خارجين لتوهم من ثورة هى أشد الثورات التى سجلها التاريخ وحشية ". وهكذا حمل بشدة على الحملة من حيث ظروف تجريدها، وأهدافها التى اندمجت فيها " النزعتان الوطنية والتجارية فأسفر اندماجهما عن وليد هو " الامبريالية " وأطماع جنودها و"الأطماع الخسيسة " للتجار الفرنسيين فى مصر وترحيبهم بالغزو[10] الذى تم استغلال " ظلم المماليك " ذريعة له [11] وأحلام بونابرت من ورائها [12] واستخدام القوة والدين فى آن[13]. بل ولكونه اهتم بـ" الحقائق الإنسانية " ومن ثم أشار إلى أن الاحتلال الفرنسى ارتبط، ومن الناحية الاجتماعية، بما أسماه "خطراً على الآداب العامة " و"المتع الرخيصة" أو "الوباء النفسى". وهكذا أضاف الفرنسيون إلى ظلمهم للأهالى اغتصابهم

للنساء، حتى إن الجنرال بليار " كان يسمح لجنوده باغتصاب النساء ليرفع معنويتهم "[14]. على أن هيرولد فى الوقت نفسه تحدث عن "استسلام السكان " للمماليك والعثمانيين بما يعنى تجاهله أو عدم وعيه بالانتفاضات التى قاموا بها، وكرر مقولات سائدة عن " التخلف " و" الجمود " والذى حاول بونابرت القضاء عليه لإخراج مصر من" العصور الوسطى"[15]. كما وصف رد فعل زُوّار المجمع العلمى من المشايخ بما لا يقلل من جهلهم، وإن أشار إلى شعورهم بعزتهم واحترامهم لاستقلالهم وهويتهم[16].

فى الإطار السابق جاء تقييمه لنتائج (الحملة) واعتبر أن لها نتائج إيجابية وسلبية، ولكن بشكل أوقعه أحياناً فى تناقضات. فنهايتها تعتبر طياً لـ " صفحة عميقة من تاريخ الاستعمار " ولم تحقق غير " خسارة الأرواح والخراب والقسوة ". لكنها فى الوقت نفسه " ذات دلالة أبقى.. فقد تحطمت قوة المماليك.. ونفذ محمد على وخلفاه كثيرا من المشروعات التى بدأ الفرنسيون بالتفكير فيها ليجعلوا من مصر بلداً عصرياً. وظل أثر الفرنسيين الثقافى والتكنولوجى ظاهراً إلى اليوم. لقد حرك نابليون فى مصر.. قوى تعمل على التغيير رغم شدة جمود تقاليد الماضى ". على أنه عاد سريعاً للتخفيف من ذلك بالقول " ومن العبث إطالة الكلام فى جميع هذه النتائج.. فمصر كان مآلها إلى التغير حتى ولو لم يظهر بونابرت قط فى سمائها، وآيات الفن وروائعه.. كان مصيرها إلى الكشف حتى ولو لم يزحف ديزيه قط إلى الصعيد، والرموز الهيروغليفية كانت ستنفك حتى ولو لم يكشف حجر رشيد إلا بعد الحملة بسنوات، وقناة السويس كانت ستحفر حتى ولو لم يأمر بونابرت بمسح برزخ السويس.. صحيح أن كل شر يحمل فى ثناياه بعض الخير عرضاً ولكن هذا لا يعنى دائماً أن الشر ضرورى لجلب الخير. وأدخل فى موضوعنا أن نعتبر الحملة أول محاولة أوربية كبرى لاستعمار البلاد التى أطلق عليها حديثاً (المناطق المتخلفة). ولعلها كانت فريدة بين الحملات الاستعمارية كافة، لا بسبب من شارك فيها من شخصيات فذة فحسب، ولا بسبب مجال تخطيطها أو ما يثيره مغامرتها فى النفوس من انفعالات، بل أهم من ذلك بسبب الجدية التى حاول بها بونابرت وخلفاه أن

يُحققا الاندماج بين الغرب العلماني والشرق الإسلامي على قدم المساواة. فإن محاولة كهذه لم تبذل منذ ذلك التاريخ"[17]!.

ورغم وعيه بأن الهدف الحقيقي من إنشاء الدواوين كان " إضفاء الصفة الشرعية على السياسات الفرنسية وإقرارها بفضل مكانة العلماء والفقهاء الذين تتألف منهم.." بالإضافة إلى دورها في نقل شكاوى الأهالي إلى السلطات الفرنسية و " جس الرأى العام " وأنها كانت " في المهمة الثانية لا يُركن إليها إطلاقاً شأن كل هيئة تُضمر العداء للمحتل وإن أذعنت لمطالبه ".. إلا أنه أشاد بتجربتها، وإن أخذ عليها أنها لم تؤد لإصلاح جذري ومن ثم لم يعتبرها " حدثاً تاريخياً "[18]. ورغم وعيه بأن " اللجنة العلمية الفنية كما سُميت " لم تكن إلا " لجنة خبراء وفنيين " ولا تقل أهمية عن الجيش "طالما أن هدف الحملة كان تحويل مصر إلى مستعمرة لفرنسا".. وأن أعضاءها - بخلاف عامة الجند - كانوا " على وعي بهدف إيجابي يستطيعون تحقيقه ".. إلا أنه شكّك في قدرة بونابرت منذ البداية على إنجاز مطالب (الحملة) - بما فيها من مهندسين وعلماء وإخصائيين في الطيران وفنانين وأثريين واقتصاديين وكيميائيين وجراحين وكتاباً وموسيقيين ومترجمين وطابعين - في نحو عشرة أسابيع فقط. ورغم كل ما سبق، خاصة تشكيكه في قدرة بونابرت على توفير مطالب الحملة من العلماء، إلا أنه بالغ في دور اللجنة والمجمع العلمي الذى كانت أهدافه "لم يسبق لها نظير " وتراوحت بين " خدمة مطالب الحملة، والنهوض بمصر من أجل الحملة "، كما تراوحت المهام التى أُوكلت إليه بين " التافه والجليل" و" وانصرف أعضاء اللجنة العلمية وأعضاء المجمع العلمي إلى هذه المهام كُلياً بهمة وقدرة إنتاجية مُذهلتين، وأثمرت جهودهم أثراً خالداً من آثار الدرس الجماعي.. وصف مصر "[19].

وهكذا فهيرولد الذى كتب لتوضيح "الحق" عن "مغامرة" الاحتلال والصورة "غير الطيبة تماماً" لرجاله.. انتهى به الأمر بالوقوع في تناقضات حول نتائجها، لذا كان من الطبيعي أن يكتب " ولاريب في أن الحملة - برغم فشل جميع أهدافها- كان لها نتائج بعيدة شديدة التباين. أما كون حصيلة الموازنة بين هذه النتائج إيجابية

أو سلبية فمسألة يختلف فيها الرأى "[20]. ونعتقد أن ذلك التناقض يعود لموقفه من مفهوم الحداثة، لاسيما وأنه مع نقده للاحتلال، امتدح ما أدخله من تحديث على مصر " المتخلفة " التى تعيش فى العصور الوسطى[21] ! وتلك إحدى سمات التفسير الليبرالى للتاريخ الذى خرج منه ما أسماه جران " الاستشراق الجديد".

وبعيداً عن تناقضات هيرولد، قام بيتر جران فى " الجذور الإسلامية للرأسمالية المصرية " بإعادة تقييم نتائج الاحتلال بتقديم تفسير جديد لأوضاع مصر قبله وبعده. ويمكن القول بأن تقييمه بدأ من التاريخ الذى وضعه لدراسته 1760–1840 والذى يعنى بوضوح أن التحديث فى مصر بدأ قبل مجىء الاحتلال الفرنسى الذى لا يُعتبر مسئولاً عن ذلك إلا بقدرٍ مُعين، وأن مصر كان من الممكن أن تنجز عملية التحديث بنفسها[22]. وتعتمد دراسته فى تحديد نتائج الاحتلال ونقد ما قيل من مُبالغاتٍ بشأنه على أمورٍ ثلاثة يمكن ترتيبها كما يلى :

أولاً: شهدت مصر تطوراً اقتصادياً واجتماعياً مُهماً فى القرن الثامن عشر نتيجة التحول الرأسمالى الذى شهدته تجارتها منذ القرن السابع عشر، وتعاصر ذلك مع مجموعة من العوامل التى بلغت درجة من الوضوح والنضج فى ستينيات القرن الثامن عشر. أما العوامل الداخلية فتمثلت فى تدهور نفوذ الباب العالى، وظهور البكوات المماليك فى تجمُع شبه مستقل من المقاتلين ذوى نزوع قوى نحو التجارة لتلبية احتياجاتهم. وأما العوامل الخارجية فتمثلت فى نتائج "ميلاد السوق العالمى الحديث " وتقدُم الثورة الصناعية فى غرب أوربا وخلقها نوعاً جديداً من السلع والسوق، بحيث لم يعد الأوربيون يكتفون بالبحث عن بعض المنتجات كالسابق، بل أصبحوا يُصرون بشكل متزايد على البحث عن المواد الخام التى يمكن مُعالجتها صناعياً. أدى هذا الضغط من داخل النظام الأوربى، مع تطور التقنيات، إلى محاولات السيطرة على القطاعات الرأسمالية فى البلاد الإفريقية والآسيوية والعمل على التوسع فيها. وفى هذا الإطار اندفعت فرنسا، خاصة بسبب تداعيات هزيمتها فى حرب السنوات السبع، للبحث عن مصادر المواد الخام فى المناطق القريبة منها ومنها مصر التى حظت باهتمامها كمصدر للحبوب وسوق للسلع الفرنسية. وقد

اعتمد التغلغل الفرنسى على التجار والإرساليات الدينية والأقليات المحلية. على أن ما سبق عزز من الازدهار التجارى فى مصر وشجع على نمو طبقة جديدة من غير المصريين تقود اقتصاداً شرقياً فى اتجاه التصدير. ومع تحقق عالمية قطاع التجارة وارتفاع أهمية الصادرات الزراعية فإن بنية الطبقة الحاكمة تغيرت لاسيما وأن تلك الفترة شهدت السقوط التدريجى للنظام العثمانى. وفى ظل ذلك كان المماليك وغيرهم يتصارعون ليضمنوا المصادر الجديدة للثروة، كما أن الروابط التضامنية القائمة على بنية الطوائف بدأت تتداعى لتحل محلها روابط جديدة أكثر تمييزاً للبنية الطبقية الحضرية. وهكذا فمع أن مصر " كانت تعيش مجتمع العصور الوسطى حتى بداية القرن الثامن عشر، وتسود فيها مجموعة من المؤسسات تقوم كل منها على الاكتفاء الذاتى وتتميز ببنية رأسية " مثل الطائفة الحرفية والمذاهب الدينية والأزهر والبيوت المملوكية وجماعات التجار.. إلا أن الازدهار التجارى صاحبته صحوة اجتماعية مهمة لم تؤثر على المماليك والطبقات الوسطى فقط، بل وعلى طوائف الحرفيين والطرق الصوفية، مع الوضع فى الاعتبار أن تلك التطورات شهدت تراجعاً بعد 1790. وبناء على ذلك فإن الفترة النابليونية كانت أقل أهمية لمصر عن فترة التطور الرأسمالى غير المتوازن فى فرنسا فى القرن الثامن عشر، كما أن الفترة الواقعة بين1760- 1815 تمثل وحدة مترابطة وحلقة واحدة من حلقات التاريخ المصرى، وهى سنوات فاصلة تم فيها ظهور الهيكل الأساسى لمصر الحديثة. ومن ثم فنتائج الاحتلال فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية لا تخرج عن تلك التطورات، بل إن عهد محمد على يعتبر فى الأساس " استمراراً لنفس الاتجاهات التى بدأت فى القرن الثامن عشر "[23].

ثانياً : تركت تلك التطورات تأثيراتها على الحياة الفكرية وكانت مراحل الصحوة الثقافية " لاحقة للتحول الاجتماعى الاقتصادى ". لقد حاولت مصر فى الفترة 1760–1840 الاحتفاظ بسيطرتها على تجارتها وألا يقتصر دورها على الإنتاج والاستهلاك، ولذلك لم يكن أمراً مُفاجئاً أن تنمو فى محيط التجار والبيروقراطية الحاكمة فى هذه الفترة عملية تحديث محلية فى الفكر الإسلامى، لتثبيت الواقع

الاقتصادى. ومن ثم يجب التخلى عن الافتراض الشائع بأنه لا يوجد فكر حديث غير غربى فى بلاد الأطراف إلا ويستمد جذوره من الغرب، وكذا عن "الصورة التقليدية " عن مصر فى القرن الثامن عشر باعتبارها " تتسم بالبربرية والفوضى"[24]. ولتوضيح ودعم أفكاره هذه ودحض المقولات عن تفوق الغرب (الآخر) على الشرق، وأن ازدهار الغرب يعنى اضمحلال الشرق [25]، وكذا مقولة "الفراغ الثقافى" فى مصر قبل الاحتلال، وأن " أوربا ملأت هذا الفراغ بالأفكار الحديثة ".. قام بنقد ما قيل عن تقدم أوربا فى القرن الثامن عشر "بشكل مثير" فى الطب أو العلم، كما اعتبر أن دراسة دقيقة لما كتبه المصريون فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر لا توضح أن البلاد كانت فى حالة انحطاط ثقافى. وعنده أن السبب فى عدم تقبل مصر للتكنولوجيا، سواء كان هذا هو الحال أو لم يكن، لم يكن هو الجهل أو النظرة الدينية بل عدم ملاءمة التكنولوجيا للأوضاع القائمة[26]. وفى الاتجاه نفسه نادى بضرورة تعديل المؤرخين لرأيهم – بشكل إيجابى – فى الحواشى والشروح والتقارير[27]. بيد أن " الصحوة الثقافية " شهدت تدهوراً منذ 1790 لتدهور الأوضاع السياسية والمشاكل الاقتصادية والاجتماعية، حتى ليبدو أن الحياة الثقافية اقتصرت " بشكل متزايد على الحد الأدنى اللازم لدعم الحياة الدينية. وإذا كانت هذه الظروف أدت ببعض أبناء هذا الجيل إلى الشعور بالمرارة والسلبية أو الاستسلام (الجبرتى والخشاب) فإنها أدت بالبعض إلى الصراع (العطار) الذى "قاده الفشل فى تحقيق النجاح إلى عدم الرضا عن الحياة الفكرية القائمة، ثم دفعه هذا الفشل إلى الثورة بشكل متزايد على هذه الحياة "، وهو ما ستظهر نتائجه فى عهد محمد على[28].

ثالثاً : ومن ثم فالتحديث – باعتباره عملية محلية وذاتية – كانت تشهده مصر قبل مجيء الاحتلال. وعنده أن المتتبع للأوضاع " يلاحظ أن هناك تحولات عميقة تجرى فى مصر حتى قبل مجيء نابليون ". ومع أنه لا ينكر أهمية التأثير الأوربى على الاقتصاد والثقافة فى مصر، خاصة وأن " التأثير الفرنسى عمل على تعزيز قرار

الحكام المصريين اللاحقين كي يتحالفوا مع الأجانب وفي الحدود التي يريدون فيها خلق صفوة تقنية مدربة محلية، وفي ظل الرعاية الأجنبية ".. إلا أنه يعارض القول بأن " أصول مصر الحديثة " ترجع إلى الاحتلال ويرى أن الثقافة الحديثة لها أساسها المنطقي في مصر نفسها، وذلك في التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي مرت بها في منتصف وأواخر القرن الثامن عشر ". بل ولقد اعتبر أن الغزو الفرنسي " أضر بالطبقات الوسطى وبالثقافة العقلانية التي كانت تفرزها "(29).

ورغم وجاهة ما توصل إليه (30) بخصوص نتائج الاحتلال، فإن السؤال الذي يبقى : لماذا قدم جران هذا التفسير؟. هل للجو العلمي الذي عاشه منذ الستينيات سواء في الولايات المتحدة الأمريكية أو في مصر، ووجود عفاف لطفي السيد وإدوارد سعيد هناك؟(31). أم لكونه مفكراً يسارياً يقف ضد كل استعمار(32) وضد فكرة المركزية الأوربية، ومن ثم وقوفه مع التجارب الخاصة للبلاد "المتخلفة"؟(33). أم لأن مصر قبل الاحتلال كانت تشهد بالفعل ما يستحق الوعي به وإظهاره، بدلاً من الحديث عن مصر الحديثة فقط بسبب نتائج الاحتلال؟.

أما دراسة كونو " فلاحو الباشا " فجاءت لتضيف الجديد، وفي الاتجاه النظري نفسه الذي سار فيه جران من قبل. وهو في عمله على وعي تام منذ البداية بالقضية التي نناقشها، ومن ثم - ورغم حيرته الفكرية -لم يعتبر نفسه من أنصار "الانقطاع" الكامل الذي يمثله عام 1798 أو 1805 رغم عدم إنكاره أن " تغييراً هاماً حدث في القرن التاسع عشر ". وبعيداً عن البحث عن التحديث " بمعناه الخطابي".. أسس موقفه هذا انطلاقاً من التركيز على" التاريخ الاجتماعي والاقتصادي" ومن الإجابة على أسئلة مثل: "متى وكيف اندمجت مصر في اقتصاد العالم الرأسمالي " وكذا البحث عن حقيقة نظام أراضي الفلاحة، والتجارة الحضرية الريفية، والبنية الاجتماعية الريفية، وتفاعُل القانون مع التصرفات والاتجاهات التقليدية الريفية في التعاملات(34).

لقد انتهى إلى أن بعض الظواهر الخاصة بحيازة الأرض في القرن التاسع عشر

"إما أنها لم تكن جديدة أو أنها كانت تطورات مؤسسة على أبنية وتعاملات كانت موجودة فيما سبق " وكانت هناك حيازة فردية " وإن افتقدت إلى عدالة التوزيع بين المزارعين ". أما القول بأن مصر كانت تعيش على " اقتصاد معيشى" قبل تحولها إلى اقتصاد "موجه للتصدير" فغير صحيح لأن سجلات المحكمة تثبت أنه قبل عام 1800 كان يوجد نظام تسويق وعلاقات من القروض والاستثمارات ربطت القرية بالمدن وبالأسواق العالمية، واتسع نطاق إنتاج المحاصيل من أجل السوق ". وهكذا أيد القول بأن المجتمع الريفى شهد " ملامح الرأسمالية " فى القرن الثامن عشر، وهو ما مهد للتحول فى القرن التاسع عشر إلى مزيد من الزراعة التجارية، وأن الفلاحين لم يتحولوا " فجأة وفى جيل واحد من مجرد نظام الزراعة المعيشية إلى الزراعة التجارية، ولا اندفعوا إلى عالم غريب من تبادل العملة وزراعة محاصيل السوق وتحويل الأراضى إلى سلعة، بل كانت هذه الأمور مألوفة لديهم، باستثناء الصعيد الذى شهد نظاماً جماعياً لحيازة الأرض "[35].

وإذا كانت مصر قد شهدت تلك التطورات الإيجابية فى القرن الثامن عشر، فإن نتائج (الحملة) كانت سلبية فى هذه الناحية لأنها "أوقعت البلاد فى الاضطرابات مرة أخرى، وعاد المماليك يلجأون إلى الصعيد بينما احتل الفرنسيون القاهرة. وتسبب الحصار الانجليزى فى نقص الصادرات إلى الثلث مما أدى إلى تدهور صناعة النسيج والزراعات المتصلة بها. وترك الفرنسيون الصعيد لمراد، ولم يتمكنوا من إخضاع الدلتا بالكامل، ولم يحققوا أياً من خططهم الإصلاحية بسبب صراعهم المستميت للبقاء. وفى هذه الظروف لم تختلف طرقهم فى جباية الضرائب عن المماليك " حتى قرر كليبر ضرورة أن (يعصر مصر كما تعصر الليمونة فى العصارة) لكى يملأ خزانته الخالية ". ولقد كان ذلك سبباً يضاف إلى الأسباب السابقة، والتى أدت لاستمرار تراجع الاقتصاد الريفى، بل ووقوعه فى أزمة[36]. وإذا كان نظام الالتزام قد تعرض للمتاعب أواخر القرن الثامن عشر، فإن الاحتلال الفرنسى القصير الأمد أضاف إلى المتاعب الاقتصادية للبلاد، وأربك

نظام الالتزام تماماً، حيث صودرت الالتزامات - فيما يقرب من ثلثى مساحة الأرض الزراعية - من المماليك الهاربين كـ (ممتلكات للجمهورية) وحاول بونابرت بيعها لملتزمين جدد فلم ينجح إلا قليلاً، ووضع الفرنسيون الضرائب على أراضى الأوسية، وزادوا نصيب الحكومة من عوائد القرية على حساب من تبقى من الملتزمين، ووُضعت خطة لإلغاء نظام الالتزام ووضع ضرائب مباشرة وتمليك الأراضى " غير أنها لم تنفذ أبداً ". وهكذا انتهى كونو إلى عدم وجود " انقطاع تاريخى"، وإلى عدم صحة القول بأن الاحتلال، وتولى محمد على " أوصلا مصر إلى الاتصال بالغرب، وبذلك تم تدشين عصر من التغيير التقدمى الذى أدى إلى ظهور أمة حديثة "[37].

هكذا تضمنت النماذج الأمريكية الأربعة التى عرضنا لها ثلاثة اتجاهات فى تفسير نتائج الاحتلال الفرنسى. وبقدر ما تعكس تلك الاتجاهات قدراً من الثراء الفكرى، إلا أنها تعكس تبايناً له جذوره وأسبابه. ونعتقد أن الاختلاف بقدر ما نتج عن الموقف من أوضاع مصر فى العصر العثمانى، إلا أنه نتج أيضاً عن الموقف من الحداثة (معناها ومظاهرها ودور الغرب فيها) وإلى حد ما الموقف من الاستعمار القديم (الاستعمار الفرنسى لمصر نموذجاً) والجديد (بما فيه من تنافس وتلاقى على المصالح والأهداف بين الولايات المتحدة وأوربا الغربية). وهكذا فعلى الرغم من المنحى الأخلاقى لهيرولد فى تناول ممارسات وتجاوزات الاحتلال الفرنسى، إلا أنه تعامل مع نتائجه انطلاقاً من موقف يقصر مهمة التحديث على الغرب، مع أنه لم يكلف نفسه معرفة حقيقة أوضاع مصر فى العصر العثمانى. أما ريفلين وكونو فلم يقصرا التحديث على الغرب، بل وجعلوا للشرق (مصر) دوراً فيه. أما جران فجعل للتحديث أساسه المصرى الأصيل، وإن لم يكن مُنبت الصلة – فى إطار تفاعل إيجابى – مع التطورات فى أوربا. ونستطيع القول - تجاوزاً – إن الاتجاه الليبرالى لهيرولد الذى تمخض عن تفسيرات ومواقف متناقضة، قابله اتجاهاً يسارياً ثورياً عند جران، وبقيت كتابات ريفلين وكونو لتمثل اتجاهاً وسطاً.

obeikan.com

لم يقدم لنا " ريمون " فى "الحرفيون والتجار فى القاهرة " ما نطمئن إليه فى تحديد رأيه بشكل مباشر فى نتائج الاحتلال. ومع ذلك لا نستطيع إغفال بعض الفقرات التى أوردها، خاصة وأن موضوعه استغرق القرن الثامن عشر كله. ففى إطار تناوله لحالات الابتزاز التى تعرض لها المصريون فى تسعينيات القرن الثامن عشر أنهى ريمون عمله بالقول " وعقب سنوات طويلة من البؤس والمصائب المتواصلة، كانت الأمور تنذر بالنهاية المحتومة "[38]. فهل قصد بـ"النهاية المحتومة" الاحتلال الفرنسى، أم التداعيات التى حدثت منذ الاحتلال وفى عهد محمد على؟. فإذا ما عُدنا لمقدمة دراسته وجدناه وقد أشار إلى أنها تناولت " البنية الاقتصادية للقاهرة، والمجتمع المصرى تحديداً.. فى إطار التطور التاريخى لمصر خلال القرن الأخير من السيادة العثمانية، وذلك قبل أن يوشك التدخل الأوربى وبدايات التحديث أن يُغيرا التنظيم الاقتصادى والبناء الاجتماعى (التقليدى) "[39]. ولعل هذا يدعم القول بأن " النهاية المحتومة " للاقتصاد والمجتمع (التقليديين) عنده إنما تمت منذ الاحتلال، حيث بدأت " بدايات التحديث ".

على أن الرجل – مع ذلك – سيرفض فى موضعٍ تالٍ رأى القائلين بأن المجتمع المصرى فى القرن الثامن عشر " اتسم باتجاه شديد نحو الركود " أو أن مصر دخلت "عالماً مُغلقاً تماماً راكداً ركوداً نسبياً". فعنده أن هذه الأقوال "محض افتراءات يتعين التصدى لمُسلماتها الجامدة والخاصة بمفاهيم التقدم أو التدهور والازدهار أو البؤس التى عادة ما يتم توظيفها عند توصيف حالة مصر العثمانية". ومن ثم فمن الضرورى "أن نتحرى المعانى الصحيحة الواقعية لها". كما أخذ على الرحالة ووكلاء القناصل فى مصر فى القرن الثامن عشر أنهم "غالباً" ما لاحظوا وتحدثوا عن "حالة الانحطاط التى ألَمت بالحِرف الرئيسية" كما أخذ على (علماء الحملة) "قسوتهم فى حكمهم على التقنية المستخدمة ". بل وأشار إلى ضرورة تقييم الدور الذى ساهم به أهالى البلد (العامة) خلال الثورات الكبيرة للقاهرة ضد الاحتلال الفرنسى، وفى إطار الأزمات التى سبقت ارتقاء محمد على الحكم، على اعتبار أنه

"شكل ظاهرة مُلفتة للنظر، ولابد أن ثمة فترة طويلة سبقت نضج هذه الظاهرة، تتطلب الكشف عنها " [40] وهذا يعنى وعيه بأن تطوراً ما قد طال وعى المصريين قبل الاحتلال، ولكنه لم يصل إلى درجة " التحديث ".

من ناحية أخرى فإن ريمون عند تناوله لتدهور الأمور فى مصر تحت حكم المماليك حتى وصول الاحتلال، ثم إصدار بونابرت لمنشوره الشهير.. الذى أكد فيه على أن " رب العالمين " قد " حكم " بانقضاء دولة المماليك الذين " يفسدوا أحسن إقليم فى هذا الكون".. يقول: "وإذا كان هذا التوجه الشرقى بمقولة (الحرب على القصور والسلام للأكواخ) ليس سوى ما كان ينتظره الغازى، فعلى الأقل كانت هذه هى إحدى النتائج الحاسمة التى حققتها الحملة بالفعل والمتمثلة فى انهيارالنظام المملوكى سريعاً.. وبطريقة كاملة بحيث بات من المستحيل استعادة نفوذهم القديم". وهكذا طرح نتيجة أخرى من نتائج الاحتلال. لكن السؤال: هل نعمت الأكواخ هى الأخرى بالسلام؟!. بالإضافة إلى ذلك فإن حديثه عن " وصف مصر" باعتباره كتاباً " خالداً " و" مُنتجاً علمياً للحملة الفرنسية الفاشلة ".. يمكن أن نعتبره نتيجة أخرى، وإن شكك أكثر من مرة فى صدق ما أورده [41]. وربما كنا على صواب إذا قلنا إنه اعتبر مصر كانت مجتمعاً يعيش فى ظل أوضاع " تقليدية " ولكن " غير راكدة " وإن التحديث بدأ فقط مع الاحتلال. ولكن إذا ما صدق هذا فإنه يعنى إهماله لخصوصية المفاهيم التى نبه عليها من قبل !!.

بيد أن الغموض الذى خيّم على موقف ريمون فى " الحرفيون والتجار " اتضح - إلى حد ما - فى " المصريون والفرنسيون فى القاهرة ". لقد حاول مناقشة الأمور والقضايا المُؤلمة بأسلوب هادئ وبشكل يلطف منها، كما حاول – وهو الفرنسى والمحب لدراسة تاريخ مصر – أن يتناول تاريخ الاحتلال بشكل "وسطى" ومن ثم وضع " المتناقضات " أمام بعضها [42] حتى تبرز الأمور فى النهاية فى قدر من "التعادلية" رغم أن أحد أسباب تأليفه للكتاب كان محاولة " عرض وجهة النظر المصرية " غير الواضحة !! [43]. وفى الإطار السابق ناقش نتائج الاحتلال. فهو ينقد - بشكل أقرب إلى" اللاموقف " - تباين وجهات النظر فى تقييمه " والحال أن

نرجسية تاريخية، أوصلها تمجيد (الملحمة النابوليونية) إلى ذروتها، والمبالغة فى تقدير أهمية النتائج العلمية للحملة قد بررتا، من الجانب الفرنسى، تقييماً إيجابياً بشكل مبالغ فيه للحملة ولنتائجها، يصل إلى حد إرجاع يقظة مصر إلى عام 1798. أما المصريون فقد ترددوا بين رؤية إيجابية للحملة (التى يقال إنها قد رمزت إلى بداية تحديث مصر) واتجاه يميل إلى اعتبارها بمثابة (لاحدث) بحكم أن مصر لم تكن (نائمة) البتة فى عام 1798 وبحكم أن الآثار المباشرة للاحتلال كانت محدودة ". على أن هذا لا يلغى أن ريمون يرى – ومن جديد – أن الاحتلال جاء ببذور " الحداثة " إلى مصر وكانت له " مهمة تنويرية " وإن لم يستطع مد جذورها للعديد من العوامل ومنها قصر المدة التى قضاها، ومشاكل الدين [44] واللغة والعادات [45] والموقف من النساء [46] و" العنف والمُطالبات " [47] والذى أسماه " ممارسات الاحتلال " [48] ومقاومة المماليك والعثمانيين [49] بل ونتيجة لـ "سيئات الحداثة "[50]. وفى هذا الإطار سارت رؤيته لنتائج الاحتلال.

كانت الممارسات الإدارية – ومنها الديوان – من صور الحداثة، لكن التجربة "لم تمس غير عدد محدود من المشايخ، والإصلاحات الإدارية كانت مجرد مشاريع ولم تطبق قط بالفعل ". ومع أن " الديوان الكبير.. لم يكن أكثر من شبح برلمان " إلا أننا معه " إزاء جمعية يمكن اعتبارها تمثيلية بشكل ملحوظ لأنه حتى الفئات الشعبية للمجتمع الحضرى كانت ممثلة فيه، وإن كان ذلك يشكل حدا متواضعا". ورغم بقاء بعض الممارسات الإدارية من فترة الاحتلال " إلا أنه لم تبق أية مؤسسة، أو أية مُدونة تشريعية أو إدارية، أو أية آثار من شأنها تأكيد فكرة أن بوسع (التنوير) والحداثة تحقيق إحياء مصر ". لكن الأهم هو أن الشعور" بأن التحديث شرط لتقدم مصر، وذكرى العلاقة التى أوجدتها الظروف بين الحداثة وتأثير فرنسا قد تجذرا فى مصر وفى فرنسا، وكانا عنصرين فى المشروع الذى دشنه محمد على فى مصر"[51]. وفى هذا الإطار أكد على " ديوان مينو " الذى "يجب عدم اعتباره تجربة تافهة " وكان عليه " أن يُسهم فى تشكيل الذهنية العامة المصرية وينشر فكرة الحداثة التى شكلت إحدى الركائز (وذريعة فى الوقت نفسه) للوجود الفرنسى..وهنا

ننتقل من الدعاية المجردة إلى تربية كان مينو يتوقع منها نتائج إيجابية..على أن الأكثر أهمية بكثير مسألة الحالة المدينية التى وجدت فيها شواغل الفرنسيين الحداثية والصحية صدى إيجابياً لدى المشايخ..وفى حدود معلوماتنا فإن ديوان مينو يبدو أنه كان مؤسسة لها حيويتها، وربما فعاليتها. والحال أن نشاط الديوان جعله على اتصال شبه يومى بمينو والسلطات الفرنسية، وطور بين الطرفين علاقات ثقة متبادلة مهمة" وإن ساهمت الظروف من جديد فى إفشالها. وهكذا " لا يمكن القول بأن الاحتلال فى ممارساته شجع بشكل حقيقى على صعود مصر إلى مرحلة أعلى من التمدن والذى كان الهدف المعلن للفرنسيين "[52] !!.

والاحتلال ترك بعض التأثير الخاص بفكر التنوير والحداثة رغم ضآلته الملموسة والمباشرة على المفاهيم السياسية والاجتماعية والثقافية. وهكذا فحسن العطار " الذى يُشكل استثناءً جد بارز لم تُتح له الفرصة لكى يطبق المؤثرات التى تعرض لها إلا بعد ربع قرن من رحيل الفرنسيين، بعد أن كان قد سافر كثيراً وتأمل كثيراً ". أما أفكار الجبرتى" التنويرية " عن الفرنسيين والحداثة فظلت حبيسة عمل تاريخى لم يبدأ فى ممارسة تأثير واسع إلا بعد نشره بعد عقود طويلة[53]. طالت الحداثة أيضاً أموراً علمية وعقلية " والحال أن مثال الحداثة الذى تجلى فى عدد من المؤسسات (المجمع العلمى والمجالس) وفى المبتكرات (الطباعة والسياسة الصحية) وفى المخترعات (المنطاد).. كان عليه أن يسمح بالتشجيع على تقدم الروح العامة وضمان انتصار العقل ". ومع أن موانع عديدة حالت – ومرة أخرى- دون تجذر تلك الأمور[54].. فإن ريمون لا يمل من التأكيد على أهمية "التنوير" الذى قام به الاحتلال. وهكذا فالجبرتى كان "منفتحاً" على الأدوات التى جاء بها الفرنسيون وذكر " بإعجاب واضح ظهور النقالة واستخدام أدوات جيدة النوعية.. وبالمدفع الذى يضرب كل يوم ليحدد وقت الزوال". أما عدم إعجابه بالمنطاد فيعود " إلى فشل التجربة الأولى " وأنه "لم ير فائدة " من ذلك. وبخلاف الجبرتى أبدى غيره من المشايخ إعجابهم بالمجمع العلمى ومناقشاته، وبالمكتبة وما فيها من كتب عن علوم مختلفة، وبالمطبعة وما يمكن أن تفيد به الشعوب، وبتجارب الكيمياء

والفيزياء " عجائب العلم والمؤسسات العلمية التى نظم الفرنسيون زيارات إليها وتوضيحات لها " والتى – وباعترافه– لم يتأثروا بها كثيراً !!"[55].

ومن الناحية السياسية كان للاحتلال أثره. صحيح أن الفرنسيين – الذين جاؤوا لطرد المماليك وتمكين "السكان الأصليين" من استعادة الحقوق التى حرموا منها – انتهوا إلى التحالف مع المماليك ضد العثمانيين والثناء على عودتهم للسلطة.. لكن من الصحيح أيضاً أن ما فعلوه ترك تأثيره، ومن ثم " كان الاحتلال الفرنسى حدثاً فى تاريخ مصر الحديث" لأنه وجه ضربة ساحقة لنظام حكم المماليك " بحيث إن أية عودة إلى الماضى كانت مُستبعدة " لاسيما فى ظل عجز العثمانيين عن استعادة سلطتهم، وظهور ضابط عظيم الشأن جاءت به الصدف، محمد على، الذى سيُعقد معطيات المشكلة بإضافة مرشح آخر لتولى السلطة[56]. من ناحية أخرى فإن "تجربة عهد الاحتلال المزدوجة (المشاركة فى الدواوين والنضال المسلح[*]) ساعدت القاهريين على إقامة نظام تمنوا أن يكون أخف وطأة من النظام المملوكى أو العثمانى. ومن ثم فالتوجه الذى اتخذته مصر نحو الحداثة.. تحت سلطة محمد على لم يكن عديم الصلة بالاحتلال الذى حتَّم (اختراع) نظام جديد وجر السكان، العلماء والجماهير، إلى المعركة السياسية وقدم مرجعاً لتحويل منظم للبلد ". هذا وإن صادر محمد على " تطلعات النخبة وآمال السكان " لتوجهه " نحو مشروع تحديث سلطوى، ناخت خصائصه بشكل فادح ومُقيم على تطور مصر الحديثة والمعاصرة". على أن رأى ريمون يتضح أكثر عندما كتب "لم يصل الفرنسيون..كفاتحين عاديين، فقد اعتبروا أنفسهم حاملين لرسالة تحريرية للمصريين الذين ستُرد إليهم حقوقهم التى صادرها المماليك لزمن طويل جداً، ولرسالة عالمية تمزج مُثل الجمهورية الفرنسية بمُثل الإسلام. ولكى ينجح مشروع بونابرت لم يكن يكفى إخضاع مصر، إذ كان يجب إغراؤها ". لكن الأهم هو أنه " بعد طمأنة الشعب المصرى على هذا النحو.. سيكون بالإمكان إشراكه فى حكم بلاده وقيادته عبر مثال استخدام العقل والتنوير، نحو مستقبل يشكل تواصلاً مع ماضيه الرائع "[57].

انطلق ريمون بعد ذلك إلى إثبات " إيجابية وجهة نظر المصريين" تجاه "التنوير" فكتب: "والواقع أن أعضاء النخبة بمشاركتهم فى نشاط الدواوين وبإبدائهم اهتماماً واضحاً بعدد معين من التدابير التقدمية، قد أوضحوا مع ذلك أنهم ليست لديهم أية عداوة مبدئية لحداثة معينة. لكن التطورات التى كان الفرنسيون ينشدونها لم يكن بالإمكان أن تتحقق بالسرعة التى تمنوها. وقد أبدى المصريون تحفظاً خاصاً مفهوماً حيال تبنى الحداثة المقدمة إليهم على أسنة الحراب، كما أن أسباباً قوية تمس مجال السياسة، وإن كانت تمس بالأخص الدين والتقاليد، قد منعتهم من اجتياز الخطوة، لابد من قول الهوة، التى تفصلهم عن محتليهم ". و" أياً كانت آمال الفرنسيين.. فإنهم عاشوا بشكل لا مفر منه فى جيتو، ومن ثم فإن إمكانيات نشر ثقافة حديثة وتطوير العادات المحلية عبر محاكاة النموذج المقدم كانت محدودة تماماً.. وكان الفشل واضحاً أيضاً فيما يتعلق بالمؤسسات التى أقاموها للسماح للعسكريين بإعادة خلق وسط يذكرهم بأوروباهم البعيدة"(58).

من ناحية أخرى " لا جدال فى أن المصريين، أو على الأقل الذين كان بوسعهم التعامل مع الفرنسيين على مستوى ندية نسبية(*) اعترفوا لهم بعدد من المزايا.. شجاعتهم وانضباطهم وبساطتهم " فى مقابل غطرسة المماليك. والمصريون الذين أتيحت لهم الفرصة للتفكير فى هذه المشكلات " تأثروا أيضاً بتنظيم إدارى حديث ومنضبط وفعال، تباين بالضرورة مع التهاون والتجاوزات التى كانت مقبولة فى ظل المماليك.. بل إن سير عمل الإدارة نفسه أتاح المجال لتأملات تتميز على نحو واضح بالإعجاب "(59). أما " الصرامة التى قضى بها أحياناً على أعمال عنف ارتكبها عسكريون فرنسيون " فكانت تتميز أيضاً بطابع قابل للتأثير بشكل إيجابى على المصريين وإثارة إعجابهم بقضاء يمكن أن يُمارس فى نهاية الأمر على المحتلين أنفسهم ". بل وعنده أن من دلالات موقف المصريين من التنوير أن بعض العلماء بالديوان "لم يترددوا فى أن يناقشوا مع مينو تدابير تقدمية اقترحتها الإدارة "(60) كما عبر بعض المصريين عن " الأسف " على رحيل الفرنسيين !!(61).

وعلى كلٍ فقد اتفق ريمون مع قول " الجنرال موران " فى سبتمبر 1798: "إن مجيء الأنوار إلى مصر لابد بلا ريب تأجيله إلى حد ما ". وأنه " ربما كان من المناسب أن ننتظر إلى أن يتعرف الشعب تعرفاً أفضل على أخلاقنا وعاداتنا حتى نتمكن من العمل على اختفاء هذا الاستبداد " أى الاستبداد الذى مارسه المماليك ومن بعدهم الفرنسيون. على أنه وصل لنتيجة أخرى فى غاية الأهمية حينما كتب: "وبقدر ما أن الحملة الفرنسية بدت للأهالى كشكل جديد للعلاقات الصراعية بين الإسلام والعالم المسيحى، لم يكن بوسع الطوائف المسيحية المحلية أن تفلت من أن تكون ضحية ربطٍ أسهم فيه الفرنسيون أيضاً بسياستهم ". وهكذا تعرض للخطر "مجمل التنظيم التقليدى للمجتمع " لأن " الاحتلال قد أنعش المشكلات الطائفية فى مصر "[62].

على أن ريمون لم يقدم لنا تبريراً لما حدث فى ثورة القاهرة الثانية –التى أسماها تمرداً– وشهدت باعترافه "جهداً تنظيمياً يجعل من تمرد 1800 حالة فريدة تماماً"حتى لقد استطاع المصريون آنئذٍ – الذين تم وصف مستواهم التقنى من قبل بالتخلف – أن يقوموا بصناعة المدافع والقنابل " والأكثر إثارة للدهشة أيضاً أن القادة قد نظموا صنع الأسلحة لتلبية حاجات المقاتلين " ومن ثم كتب فريان: "لقد أبدى جميع السكان نشاطاً لا يمكن توفيره فى هذا البلد إلا عن طريق الدين وحده. لقد أقاموا مصانع للبارود وتوصلوا لصنع قنابل من حديد المساجد أو المطارق أو الآلات.. وبما أنهم لم يجدوا قنابل أو قذائف من عيار هذه المدافع.. اتجهوا إلى صنع هاونات ومدافع، بما يشكل صناعة غير عادية فى هذا البلد، وقد نجحوا فى ذلك ". وإذا كان ذلك نتيجة مباشرة للوجود الفرنسى ومحاولة التخلص منه؛ فهل تلك الخبرة كانت نتيجة " الحداثة والتنوير "؟!. وإذا كان قد تناول أشكال " المقاومة" وأشار إلى أنها تنوعت بين " المقاومة بالأقوال العدائية" التى " كانت الدرجة الأولية لمقاومة القاهريين للاحتلال" و"المقاومة من خلال الشبكات المنظمة" و"ارتبطت غالباً بالمماليك والعثمانيين" و"المساعدة على الفرار من الجيش"، والتى قدمت للجنود

الفرنسيين الذين تدهورت معنوياتهم، و" العداوة للمتعاونين " مع المحتلين و" حيازة الأسلحة " التى " كانت محظورة رسمياً منذ وصول الفرنسيين " و" الأعمال الجماعية التى تفوقت على الأعمال الانتقامية الفردية "[63].. فإنه من جديد لم يوضح لنا كُنه تلك المقاومة وهل كانت نتيجة لتراكم وعى سياسى مصرى قبل الاحتلال، أم نتيجة من نتائجه فقط؟!.

ونستطيع القول بأن " رؤية " ريمون " الحقيقية " أن الاحتلال الفرنسى هو الذى أتى بالتحديث إلى مصر. على أن هذه الرؤية كانت غامضة ومتناثرة : إعادة جمع وقراءة المادة العلمية وفق أهداف وأُطر نظرية محددة، إثارة الأمور بأسلوب يجمع متناقضاتها وبشكل أوجه ومُمنهج، طرح أسئلة فى صورة تبدو فيها وكأنها قد طُرحت فى حينها، محاولة الظهور فى موقف يبدو وكأنه اللاموقف!!. ورغم كل ما سبق فإن كتاباته، فى التحليل الأخير، تثبت رؤيته التى مفادها أن الاحتلال هو المسئول عن بدء الحداثة فى مصر. ولكن لماذا كل تلك الصعوبة والمتناقضات؟. لقد حظيت كتابات ريمون بتقدير بالغ عند المؤرخين لأنها أثبتت حقائق كثيرة منها أن المجتمع المصرى لم يكن بالفقر والتخلف الذى اعتاد البعض الحديث عنه، وأنه كان يشهد تطوراً مهماً. ولكن كيف يتسق ماكتبه عن ذلك، وما كتبه عن نتائج الاحتلال الفرنسى لمصر؟!. وكيف يتحدث عن " ثورة القاهرة الأولى " ثم يعود ليعتبرها "تمرداً" بعد ثلث قرن؟ هل يعود ذلك لتطور فكرى ومنهجى أم لأسباب أخرى تتصل بعضها بـ " الرسالة الحضارية لفرنسا " والتى عادت من جديد لتوصيلها، فى ظل مصطلح " المصالح "؟!. وإذا كان قد تحدث عن خصوصية التحديث وفقاً لحضارة وظروف كل شعب.. فلماذا ربط التحديث بالفرنسيين وبشكل تنتفى معه خصوصية الشرق مع أن الكثير من مظاهر التحديث التى أشار إليها كانت تخدم فى الأساس مصالح الاحتلال الأمنية والاقتصادية والسياسية؟!. هل هو" الاستشراق الجديد " مرة أخرى؟!.

وبقدر ما يُرهق ريمون القارئ فى الإمساك بالحقيقة حتى النهاية، يبدو هنرى

لورنس- فى البداية - واضحاً فى وجهات نظره، كما أن أعماله تعتبر ذات أهمية فى الرؤية الفرنسية التى تفضح -أحياناً- الأهداف الاستعمارية لفرنسا لأنه ينتمى إلى مدرسة "المؤرخين الجدد"[64] الذين أعادوا أيضاً النظر فى تاريخ الاحتلال[65]. ففى "الأصول الفكرية للحملة" وبعد تتبع مسيرة الاستشراق الفرنسى وأوربا غير المحايد ولا الموضوعى فى ظل ظهور" النزعة المركزية الأوربية ".. انتهى إلى أن احتلال مصر "لم يكن صدفة تاريخية بل اختباراً عملياً لروح استعمارية جديدة تهدف من حيث الجوهر إلى تغريب معمم لمجمل العالم غير الغربى " ومدى تورط الاستشراق فى الاستعمار ومعه " تحت الوجه العقلانى العلمى والغربى". وفى هذا الإطار أوضح كيف أن فكرة " تحرير" مصر و" تحديثها وتطويرها ".. قد رُفعت كشعارت فى الأساس قبل الغزو [66] ولكن العمل مع ذلك لم يوضح حقيقة ما إذا كان الاحتلال قد قام بتحديث فى مصر أم لا؟!.

وإذا كان لورنس فى عمله السابق لم يتعرض لذكر نتائج احتلال فرنسا لمصر، فإنه اقترب من ذلك فى " كليبر فى مصر". لقد أورد بعض عبارات كليبر الدالة " لماذا قاتلت حتى الآن؟. لأجل مجد جيوشنا ولأجل الحرية. ومجد جيوشنا فى الذروة، لكن الحرية تبتعد بقدر ما أتقدم ". ورغم ذلك " يصدق كليبر بإخلاص برنامج الحملة التحريرى. فمصر بالنسبة له هى ساحة معركة ضد انجلترا وأرض يجب تحريرها وموضوع دراسة علمية.." [67]. وربما كنا على صواب إذا قلنا بأن ما كتبه كليبر قد عبر عن بعض آراء لورنس الذى استمر فى نقل مثل تلك الفقرات، وكانت له تعليقاته التى توضح أن " الحملة " كانت دليلاً على أن الثورة الفرنسية بدأت بإعلان حقوق الإنسان وانتهت بالاستعمار، وأنها أدخلت الحداثة إلى مصر فقط على المستوى " الجيوبوليتيكى " بمعنى "تحويل مصر إلى رهان بالنسبة للعالم الحديث". أما فيما عدا ذلك " فإن الانفتاح على العلم قد قام به محمد على فيما بعد. وإذا كان لورنس اعتقد ـ ضمنياً ـ بأن مصر لم تكن قد عرفت الحداثة قبل وصول "الحملة".. فإنه يرى فى الوقت نفسه أن (الحملة) لم تستطع القيام بذلك، وهو ما توضحه

تعليقاته على بعض ما كتبه كليبر[68]. فهل تابع الاتجاه نفسه فى عمله " الحملة الفرنسية فى مصر " الذى ملأه هو الآخر بالتفصيلات؟.

كان لورنس واعياً بإشكالية نتائج الاحتلال " إن الكتابة التاريخية الليبرالية فى الشطر الثانى للقرن التاسع عشر، فى أوربا كما فى الشرق.. جعلت من حملة مصر نقطة بداية الحداثة فى الشرق العربى. فهى تذهب إلى أن عالماً مُقفلاً وراكداً شهد – عبر العنف – انفتاحاً قسرياً على العالم الحديث أدى إلى نهوض ثقافى وقومى ما يزال تأثيره محسوساً فى أيامنا. ونجد صورة غير مغايرة جذرياً لهذه الفكرة عند الإسلاميين المعاصرين : فهم يذهبون إلى أن تجانس وانسجام الحضارة الإسلامية المصرية والشرق أوسطية قد تمزقا بشكل لا يمكن علاجه من جرَّاء العدوان الثقافى الذى رافق هذه الحملة العسكرية وتلاها– وهى صورة باطلة– فى نظر عدد من المؤرخين الأنجلو – ساكسونيين، الذين أعلنوا منذ وقت مبكر أن هذه المسألة لم تك غير حدث بلا أثر مقيم فى تاريخ مصر العارم أواخر القرن الثامن عشر "[69]. وإذا كان لورنس ظهر غير ميَّال إلى أىٍّ من التفسيرات التى عرض لها، إلا أننا نعتقد بأنه انتهى إلى تأييد تفسير الليبراليين !!.

لقد تحدث عن أن الثوار الفرنسيين " كانوا ينتمون إلى عالم التنوير، ولم يكن بوسع تناول اقتصادى للمشكلات أن يكفيهم". ومن ثم فإنهم" تمشياً مع ماقاموا به فى أوربا، كانوا يفكرون من زاوية إدخال تحويل شامل على المجتمعات الإسلامية. وقد أكدوا على ذلك باستمرار وحاولوا تحقيقه ". وفى الوقت نفسه كان الشرق بالنسبة للمشجعين على الحملة يبدو على حافة التمرد، وكان العالم العثمانى يبدو مفعماً بالحركة وعلى وشك أن يشهد " أحداثاً جساماً ". وبعيداً عن المغامرة الشخصية لبونابرت وعن ملحمة جيش الشرق " فمن المؤكد أن حملة مصر هى مواجهة بين ثورة فرنسية على طريق التوسع العسكرى وإسلام عزيز بتراثه التليد، لكنه فى معمعان تجدد اجتماعى واقتصادى. ومن نواح عديدة تبدو تلك السنوات الثلاث بمثابة نبوءة بالعقود التالية. وتكشف كل لحظة عن أصالتها وتستحق

دراستها فى ذاتها ". وعنده أيضاً أن مصر كانت تعيش قبل الحملة "مرحلة ثورية" رغم تردى الأوضاع الاقتصادية والسياسية بسبب " انخراط الجماعات الاجتماعية المختلفة فى التنافس على السلطة، واستخدام العثمانيين للشعور الإسلامى" سعياً إلى إثارة المسودين تحت قيادة العلماء ضد المماليك. وقد نجح رجال الدين فى خلق تحالف مع الشعب ضد المماليك فلم يعودوا مجرد وسطاء..". وهكذا وصل إلى حد القول بأن " إضفاء الشرعية الإسلامية على التمردات مع التأكيد على حق مقاومة الجور إنما يمثل النظير الشرقى للثورة الفرنسية "[70]. وما سبق يوضح لنا أن لورنس تحدث عن أمرين : ثوار فرنسيين يرغبون فى حمل رسالة التحرير وتغيير الشرق وتحديثه (نلاحظ استخدامه مقولات التنوير بديلاً عن مقولات الاستعمار التى استخدمها فى السابق!) ومجتمع شرقى يعيش حالة من التجديد و" الثورة "و" على حافة التمرد" (نلاحظ تراجع مقولات التخلف لصالح مقولات التجديد والتمرد والثورة !). ولكن إذا كان الأمر كذلك فإلى أى مدى عنده أفاد المجتمع المصرى من(الحملة)؟.

كانت "الهوية المصرية" من أهم القضايا التى طرحها. فعندما تحدث عن سيطرة غير المصريين (الإيطاليين والفرنسيين والمغاربة والسوريين والأتراك) على العلاقات التجارية بين مصر وأوربا والمغرب والشام واستانبول وأن تجارة البن وحدها التى تظل مصرية.. يخلص للقول: "والحال أن وجود هذه العناصر غير المنحدرة من صفوف سكان البلد الأصليين إنما يفسر الوجه العالمى (الكوزموبوليتى) والعثمانى الخاص لمصر فى القرن الثامن عشر، كما يفسر صعوبة انبثاق هوية مصرية بشكل حقيقى". وعنده أن الهوية المصرية آنذاك، رغم وجودها، لم تكن واضحة بين المصريين " الأصلاء " حيث تم تمييعها بين الفوارق الدينية والانتماءات العرقية. ومع أن " الهوية " لم تكن غائبة عن وعى المصريين، وإن بشكل يختلف عن الوعى الأوربى بها [71] إلا أن من المهم هنا الإشارة إلى ما ذكره لورنس من أن " شخصية سياسية مصرية أصيلة " كانت فكرة ثانوية فى دعاية بونابرت لأنها لا يمكن أن

"تخدمه فى زحفه على الهند". وفى مقابل ذلك أثار "الهوية العربية " وشعار " تحرير شعوب الشرق" لاستخدامهما فى مقابل" ورقة الإسلام السياسى " التى " حاول استخدامها فى البداية وفشل "جراء " حرب الدعاية " التى شنها الباب العالى[72].

ورغم ماسبق كتب لورنس " إن الحضارة والأمة سوف تكوّنان الفكرتين الأساسيتين من بين أفكار الثورة الفرنسية اللتين يتم تبنيهما من جانب شعوب الشرق. وستوجد هاتان الفكرتان الرئيسيتان العظيمتان بشكل دائم فى خطابات فرنسيى حملة مصر. فهل يعنى هذا أن الكتابة التاريخية الليبرالية فى القرنين التاسع عشر والعشرين محقة فى اعتبار أن هذه السنوات الثلاث تكمن فى أساس إدخال الحداثة إلى الشرق؟. الواقع أن الفكرة مغرية وقد أشار أيديولوجيو هذه الحركات المختلفة إلى هذا الأصل". على أنه لايقصر حديثه على مفهوم الهوية المصرية أو العربية، بل طال الأمر عنده الهوية الإسلامية واللبنانية والصهيونية![73] وهو مايعنى توافقه مع الليبراليين!.

وإذا كانت مصر قد شهدت نوعاً من " الإحياء الفكرى " على يد العلماء قبل الاحتلال " إذ يجرى إعداد القواميس وبحوث فى النحو وتعليقات على النصوص المقدسة. كما أن الشعر ممارسة شائعة.. وبعضهم كالشيخ الجبرتى.. يهتمون بالعلوم وخاصة الفلك. وقد قاد هذا النشاط من جهة أخرى إلى دراسة الميكانيكا ".. ومع أن " علماء الحملة سيتسنى لهم العثور على بعض المحاورين التواقين إلى المعرفة فى مجال العلوم ".. إلا أن لورنس سينادى بضرورة عدم المبالغة فى شأن تلك النهضة " فهى تظل قاصرة على دائرة محدودة تماماً من المثقفين وتعتمد بالكامل على تداول نصوص مخطوطة. فالمطبعة الناسخة والمروجة الهائلة للمعارف والمعروفة بالفعل فى لبنان.. مجهولة فى مصر. والبحوث التقنية التى تستهدف تحسين أدوات العمل لا تهم طوائف الحرف، المعقل الحقيقى للنزعة المحافظة "[74]. وهكذا قال من جديد بقول الليبراليين!!.

وإذا كان لورنس على وعى تام بالفرق بين أهداف بونابرت الحقيقية وشعاراته

المعلنة، والتى صحب العلماء على أساسها معه إلى مصر (اختلاط شعار العلم بالأيديولوجية، والرسالة الحضارية ونشر المعرفة بالتوسع، والأهداف الشخصية لبونابرت بالأهداف القومية، وإثارة قضية التراث المصرى مقابل المعاصرة والتحديث الفرنسى).. إلا أنه سيعود للحديث عن" تأثير حقيقى" ومقصود للحملة !. وهكذا فإن الهدف من إنشاء المعهد (المجمع) المصرى " يتطابق تماماً مع فلسفة الأيديولوجيين، فهو (معهد للعلوم والفنون) يهدف إلى ترقية ونشر الأنوار فى مصر، وبحث ودراسة ونشر المعلومات الطبيعية والصناعية والتاريخية " كما أنه "لا يهمل الثقافة العربية ". أما الطباعة " فمن عمل الفرنسيين فى مصر.. وعودة الطباعة إلى الظهور.. فى عهد محمد على سوف تكون نتاج كل هذه المؤثرات". وعلى كل فلعل "الشىء الأكثر أهمية للمستقبل " هو المطبعة " التى حازت إعجاب بعض المشايخ الذين عرفوها لأول مرة وترددوا عليها. بل ولقد "دهش " بعض أولئك الذين عرفوا المطبعة فى استانبول ولبنان " من سرعة ودقة العمال الفرنسيين". وهكذا فـ" عبر الإدخال البطىء لهذا التنوع من الأفكار فى أوساط العلماء المتجاوبة بالفعل فيما يتعلق بالعلوم والآداب، وهى الأوساط التى يسميها جيلبير ديلانو بالعلماء أنصار التنوير، تتهيأ النهضة الثقافية التى سيشهدها القرن التاسع عشر". وعندما يُقترح " إنشاء حديقة للنباتات مكرسة للمحاصيل الكولونيالية".. سوف تكون بمثابة مدرسة زراعية بالنسبة للمصريين. أما اقتراح ديجينيت بتنظيم خدمة طبية بالنسبة للمصريين فسيؤدى إلى " تعويد السكان على الطب الجديد ". وإذا كان قد طُرح اقتراحاً بضرورة إنشاء مدرسة للحكيمات ونشر التطعيم، بل وجعل الملاجئ مراكز لتعليم ونشر اللغة الفرنسية.. فإن "غياب الإمكانات المالية "حال دون التطبيق، وعلى كل فالمشروع " لن يتجسد إلا بعد ثلاثين سنة ". أما ضم "لارى " جثمان سليمان الحلبى " إلى مجموعته " وعرض جمجمته على طلبة العلم فى فرنسا.. فمن" الروح العلمية التى لا تغيب أبداً "، وذلك سعياً إلى تمكين الطلبة "من رؤية علامة الجريمة والتعصب " !![75].

ومع أنه أشار إلى رفض الفرنسيين تعليم المصريين شيئاً من أمور الصناعة[76] إلا أنه يعود لترديد أن " المعهد هو أداة الحضارة بامتياز، ومكتبته ومعامله مفتوحة للمصريين الذين يجرى استقبالهم بأقصى حد من الحفاوة.. وهم يجرون تجارب علمية أمام زائريهم دون أن يترددوا فى التأثير عليهم بتلاعبات الكهرباء. إلا أنه إذا كان العلماء يعتبرون ذلك كله، مُحقين، غير عادى، فإنه بالنسبة لهم ليس غير نتاج العقل الذى يعتبر، فى ترتيب المعرفة، أدنى منزلة من الوحى.. ومن ثم فإنه لا يجب التهويل من شأن وقع العلوم الأوربية فى عصر كانت الثقافة الإسلامية التقليدية ماتزال مسيطرة فيه سيطرة تامة " [77]. هذا مع ملاحظة أن ما ذكره إنما يقع تحت عنوان " الاستخدام السياسى للعلم " والذى أشار إليه[78].

وعندما يشرب بونابرت – فى 4 أكتوبر 1798– سلسلة من الأنخاب فى الاحتفال بذكرى بداية صعوده السياسى ويقول ".. إننا نضرب للعالم أول مثال على مُشرعٍ فاتح. وقبلنا كان الغالبون يتبنون دائماً شرائع المغلوبين، فلنحرز عليهم انتصار العقل، والأصعب من انتصار السلاح ولنظهر لهم أننا أرقى من الأمم الأخرى، بقدر ما أن بونابارت أرقى من جنكيز ".. يعلق لورنس: " ومن الواضح أن هذا الرهان الثقافى هو الهدف الرئيسى للحملة " !!. وهكذا فرغم حديثه عن " الحملة الاستعمارية " إلا أنه يستمر حتى النهاية فى القول: " إن التركة الأساسية لحملة مصر هى تركة علمية وأيديولوجية [نلاحظ أنها كانت تركة جيوبوليتيكية فى عمله السابق] ونحن ندين أولاً بهذا الأثر المهم (وصف مصر) وهو عمل يثير الإعجاب ويكمن فى أساس أى معرفة علمية عن مصر أكانت مصر القديمة أم مصر الإسلامية [نلاحظ أنه أهمل الربط بين وصف مصر كعمل علمى، وبين الأهداف التى كمنت وراءه]. وبعد ذلك ببضع سنوات، سوف يسمح اكتشاف حجر رشيد بفك أسرار الهيروغليفية.. وهكذا سيتم الانتقال من إجيبتومونيا أواخر القرن الثامن عشر إلى إجيبتولوجيا القرنين التاسع عشر والعشرين "[79].

وعنده أن الفرنسيين " دون خطة حقيقية موضوعة سلفاً، وبسبب الضرورات..

بدأوا فى تعديل هياكل مصر الريفية ". كما وصف نظمهم الإدارية والضريبية على اعتبارها " نموذج الإدارة العقلانية الذى طورته الثورة الفرنسية " والتى اعتمدت على الدواوين وأهل الخبرة. والفرنسيون كانت لديهم رغبة واضحة " فى أن يطبقوا فى مصر برنامج التجديد الاجتماعى العزيز على أفئدة الثوار "، لكن الظروف حالت دون تحقيق البرنامج.. ولم يستفد منه سوى الريف لمدة قصيرة. ومع ذلك فإن "هياكل ملكية الأرض، أى نظام الالتزام، تعرضت لانقلاب حاد بحيث إن العودة إلى النظام الزراعى القديم سرعان ما تتكشف استحالتها ". ومع أن عهد مينو ارتبط بانسحاب الحملة إلا أنه ارتبط أيضاً بالتفكير فى مشروعات إصلاحية مهمة سينفذها محمد على مستفيداً من خطط الحملة. بل إن صعود محمد على إلى السلطة كان "المحصلة المنطقية للنداءات الموجهة إلى المصريين أولاً من جانب العثمانيين ضد المماليك عام 1787 ثم من جانب الفرنسيين"، ومن ثم فإنه "يسعى إلى الظهور فى أعين الأوربيين بوصفه المخلص للثورة الفرنسية " من خلال البعثات والترجمة وغيرها. وعلى كل فإن "هذه القصة هى بالدرجة الأولى تبرير لسياسة (الحضارة).. وإذا كان من الواضح أن فكرة (الحضارة) هى الفكرة الرئيسية الأولى من بين نتاجات الفكر الثورى التى يتم تبنيها فى الشرق، فإن فكرة الوطن سوف تتلوها بسرعة "(80).

وعلى كل فعند لورنس أن للاحتلال نتائج أخرى، مثل دوره فى نقل الصراعات الأوربية إلى المنطقة حيث احتلت مصر وضعاً مهماً فيها، واللعب"على الأوتار السياسية والثقافية والاقتصادية والأيديولوجية للمجتمعات الشرقية "، وكون الاستشراق " أصبح السلاح الأساسى لعملاء كل دولة"، بالإضافة إلى الأدوار المهمة للديبلوماسيين والمغامرين والسياسيين والعلماء..ناهيك عن بدء وجود الماسونية فى مصر. ومع ما سبق كله وأنه " إذا ما رأى المرء أن حملة مصر هى أيضاً نتاج استشراق التنوير الذى هو سياسى بقدر ماهو علمى، واعترف بأن الاستشراق ليس مجرد لغو أيديولوجى" ومع أن "رجال التنوير لم يفهموا الشرق المعاصر لهم..

ولكنهم فهموا الشرق فى صيرورته إلى المستقبل ".. مع ذلك فإن "ماجرى بين 1798 و1801 فى المكان الممتد بين البحر المتوسط والإندوس إنما يظهر بوصفه مختبر سياسات للمستقبل، مدخلاً يجرى فيه إعلان كل الأفكار الرئيسية الكبرى. وفى أوربا كانت الثورة الفرنسية هى أيضاً ذلك الإسقاط الضوئى الفارز لصيغ المستقبل السياسية. وبهذا المعنى أيضاً فإن حملة مصر إنما تنتمى إليها تماماً "[81].

وفى اعتقادنا أن لورنس بما طرحه لم يختلف مع آراء الليبراليين، بل اختلف مع ما طرحه فى " الأصول " و" كليبر " !!. وهذا يدفعنا إلى التساؤل عن سبب تلك المفارقة؟. وهل كانت ليلى عنان محقة فى القول بأن " كلام لورنس فى النتيجة النهائية التى يستخلصها من دراسته الوافية وتعليقاته الذاتية، تسبب نوعاً من البلبلة للقارئ المنطقى "[82].

والخلاصة: أنه إذا كان القارئ لأعمال جران وكونو عليه أن يكون مع أو ضد القول بالتحديث فى مصر منذ القرن الثامن عشر، فإن القارئ لأعمال ريمون ولورنس عليه أن يسلم بأن مصر دخلت التحديث مع الاحتلال الفرنسى، وأنه دَيْنٌ لا يمكن التشكيك فى مصداقيته. وربما كان عمل ريمون " المصريون والفرنسيون فى القاهرة " وعمل لورنس " الحملة الفرنسية فى مصر " فى حاجة لدراسة لغوية تُعيد تفكيك وبناء مفرداتهم وعباراتهم، بداية من العنوان الذى يستخدمان فيه " فى" القاهرة ومصر " بدلاً من " على " القاهرة ومصر، وهو أمر له دلالته.

الكتابات المصرية : كثير من الاهتمام والارتباك فى المنهج والأهداف.

ظلت الكتابات التاريخية المصرية معظم القرن العشرين أسيرة النظر إلى نتائج الاحتلال الفرنسى انطلاقاً من اعتبارها العصر العثمانى عصر تخلف وتدهور..إلخ، سواء لعوامل سياسية أو معرفية [83] أو حتى نتيجة الانبهار بفرنسا والذى لا زال موجوداً عند البعض[84]. ولقد كان "تاريخ مصر السياسى" لمحمد رفعت من النماذج المبكرة حين جعل من أسباب(الحملة) " كشف مصر علمياً وإدخال مبادئ

المدنية الحديثة ". فى ظل كان من الطبيعى أن تأتى النتائج من جنس الأسباب وأن تكون ثرية للغاية. وهكذا فمع أنها لم تكن لها نتيجة حربية تذكر إلا أن نتائجها السياسية والاقتصادية والأدبية " كانت ذات شأن عظيم ". وإذا كانت أهم نتائجها السياسية " ولادة المسألة المصرية ".. إلا أنه مما يلفت النظر حديثه، وبشكل يدعو للدهشة، عن أن " وجود نابليون فى مصر كان مدعاة إلى التفكير فى تكوين وحدة عربية " وشجعه على ذلك " ما شاهد من العداء والخلاف المستحكم بين العنصرين العربى والتركى". أما دلالات اهتمامه بتنفيذ الفكرة فتمثلت فى " عنايته باللغة العربية.. واتفاقه مع الشعوب العربية فى سوريا أثناء حملته على تلك البلاد. ومع أن الحملة باءت بالفشل، ظلت الفكرة قائمة وحاول محمد على تنفيذها"[85].

فى ظل ذلك الموقف من الوارد أن يكتب " كان المصريون (قبل الحملة) فى سُبات عميق، بمعزل عن العالم المتمدين، لا يعرفون عن المدنية الأوربية شيئاً فأيقظتهم الهزة العنيفة من سبات كانوا فيه منذ العصور الوسطى، وفتحت أعينهم لعصر جديد ومدنية جديدة تنطوى على معلومات وعدد وأفكار وأنظمة لا عهد لهم بها.. فآنس المصريون من هذا الضوء بريقاً لامعاً وتنسموا فى الهواء عنصراً منعشاً.. فاندفعوا بالطبيعة نحوها وأصبحت أوربا من ذلك الوقت موضع إعجابهم وإرهابهم فى آن واحد. كذلك قضت الحملة على سطوة المماليك.. وفلت شوكتهم وأظهرت ضعفهم.. وكان من أول أعمال نابليون.. اشتراك المصريين فى الحكم وتكوين المجالس الوطنية فى القاهرة وفى الأقاليم لمساعدة الحكام العسكريين من الفرنسيين وقد أدخل مبدأ الانتخاب بدلاً من التعيين فى الوظائف الهامة فترك للديوان الوطنى حق اختيار رئيسه وسكرتيره، ولما خلت وظيفة قاضى القضاة.. دعى المشايخ إلى اختيار شيخ مصرى يقوم بالوظيفة بدلاً من القاضى العثمانى. وهكذا تمرن المصريون فى أثناء وجود الفرنسيين على أن يقوموا بنصيبهم فى حكم البلاد فكان لهذا التدريب أثره فى الحوادث المستقبلية ". وعنده أن " أهم وأبقى أثر تركته الحملة.. ما خلفه العلماء من الأبحاث العلمية والعملية التى أضاءت الطريق

أمام الباحثين ووضعت أساس تقدم البلاد العلمى والصناعى والاجتماعى" خاصة وأن " من حسن طالع البلاد أن جاء مع الحملة نوابغ النظريين ونوابغ العلميين" الذين طافوا البلاد "باحثين منقبين مستعلمين.. عن كل ما له علاقة بموضوع بحثهم، ومن أهم هذه الأبحاث وصل البحر الأحمر بالأبيض. ومن الأعمال المهمة أيضاً وضع خريطة جغرافية صحيحة للقطر المصرى.. والأبحاث العلمية والطبية والفنية والمناخية والجيولوجية والمائية.. وماقاموا به فى دراسة الآثار القديمة.. أما الصناعات والمعامل التى أقامها الفرنسيون بمصر.. فكثيرة أهمها صناعة المنسوجات والورق والبارود وعمل آلات لسك النقود ولرفع المياه ودبغ الجلود وللجراحة. وللحملة يرجع الفضل فى إنشاء المستشفيات والمكاتب وطبع الجرائد وإدخال المطبعة.. ولهم فضل كبير فى تأديب عرب الصحراء..وغير ذلك من الإصلاحات التى وإن لم تكمل إذ ذاك فإنها كونت النواة التى تجمعت حولها إصلاحات محمد على فى المستقبل "[86]. ومن الواضح أن رفعت كان مُتبعاً لوجهة نظر المؤرخين الأوربيين، والفرنسيين خاصة [87] ومن ثم جعل كل ما جاء به الاحتلال من "الحسنات". ومع ذلك ترددت أصداء ما كتبه فى الكثير من الكتابات التاريخية اللاحقة !!.

تناول الرافعى بشكل مفصل تاريخ (الحملة) فى " تاريخ الحركة القومية " ولم يخل ما كتبه من آراء مهمة عن نتائجها، رغم موقفه من أوضاع مصر حتى الغزو الفرنسى ووصفها بالتأخر والفاقة والفوضى.. وسيطرة السرد والوصف والتقرير على كتابته. وانطلاقاً مما سبق فعنده أنه " تبدلت الحال غير الحال فى عهد الحملة.. وطرأ على نظام الحكم فى مصر تغييرات ذات خطر وشأن كان لها نتائج بعيدة المدى فى حالة البلاد السياسية والاجتماعية ". فمنشور بونابرت – بما فيه من وعود ووعيد – استثار " الروح القومية المصرية، ولم يسبق لفاتح قبل ذلك العصر أن يشيد بمكانة مصر وعظمتها ويوجه خطابه إلى المصريين ويعدهم بأن يكونوا أصحاب الحل والعقد". بل " إن فكرة إنشاء حكومة أهلية من المصريين هى أظهر ما فى المنشور

من الوعود التى أراد أن يجتذب بها قلوبهم ". وهو يعود للقول بأن " العامل القومى" ظهر فقط خلال الحملة " حين نهضت الأمة لمقاومة الاحتلال.. بكل ما أوتيت من حول وقوة " وظل محتفظاً بقوته بعد جلائها[88]. ومعنى هذا أنه بينما "استثار" بونابرت العامل القومى فإن المقاومة للحملة " أظهرته".

ومع أن مشاركة المشايخ فى الديوان كانت أحياناً "مهزلة" وأن مهمة الديوان لم تتعد مدينة القاهرة " ولم تكن له سلطة قطعية فى الأمور" بل كانت سلطته "استشارية ومقيدة.. فضلاً عن أنهم كانوا يعملون ويتداولون.. تحت المراقبة المستمرة" وأن اختصاصه تعلق بـ" السلطة المدنية للحكومة " فقط وأن جيش الاحتلال كان " المرجع الأعلى للسلطة ".. إلا أن الرافعى ثمن غالياً دور الديوان. فمن ناحية التوقيت والأهداف كان " أول ما فكر فيه " بونابرت فى حديثه مع المشايخ " هو تأسيس الديوان من كبار العلماء والأعيان (لتدبير الأمور والنظر فى راحة الرعية وإجراء الشريعة) أى أنه فاوضهم فى فكرة تأسيس حكومة أهلية يكون العنصر السائد فيها من المصريين". ومن ناحية أخرى " لاجدال فى أن تأسيس الديوان..كان نواة نظام شورى لم تعرفه البلاد من قبل " ومن ثم كان نظاماً جديداً ومهماً " خاصة وأنه " يجعل للعنصر المصرى صوتاً فى حكومة البلاد " بعد أن تم استبعاده من قبل " وهذا شيء جديد له أثره فى التطورات التى ظهرت فى البلاد " بعد ذلك. وهنا ثمن الرافعى من جديد دور بونابرت والفرنسيين، خاصة وأن الحركة الشعبية " الانقلاب" التى قادها العلماء بعد خروج الفرنسيين كانت "فاتحة الخير والاستقلال لمصر والمصريين، والأساس الذى شيدت عليه دعائم الدولة المصرية فى تاريخ مصر الحديث"[89].

ورغم وعيه التام بالظلم الذى حاق بالمصريين، وأن الأوضاع الاقتصادية "ساءت عما كانت عليه قبل الحملة " وأن البلاد " عانت.. أشد ما يمكن تصوره من الضيق والفاقة " وزادت أحوالها "ضنكاً على ضنك " بسبب" توالى الضرائب والغرامات والمصادرات والنهب والتخريب والإحراق والتدمير أتلف الزراعة

والتجارة والصناعة"[90].. رغم ذلك كله فإنه لا يهمل الحديث عن " إنجازات " الاحتلال حتى لو اتصلت بخدمة أهدافه ومطالبه فقط !. وهكذا تحدث عن أنهم أنشأوا " جريدتين.. ومحاجر صحية.. وأمر نابليون بإنشاء عدة مستشفيات عسكرية خاصة بالجنود.. وفكر فى إنشاء مستشفى للوطنيين وألف لهذا الغرض لجنة.. لكن المشروع لم ينفذ شيء منه.. ويدخل فى الأعمال الصحية التى أجراها الفرنسيون ما قرروه من إنشاء لجنة لإدارة الشئون الصحية فى القاهرة ومصر القديمة وبولاق ووضع اللوائح لنظافة المدينة وتقرير الوسائل الصحية فيها ". وهو يؤكد بشكل خاص على دور المجمع العلمى " ومما عمله أعضاء المجمع العلمى أنهم أنشأوا طواحين الهواء.. وأصلحوا دار الصناعة.. وأنشأوا مصنعاً للجوخ وآخر لصنع القبعات و..لصناعة البيرة و..لدبغ الجلود..ومصنعاً ميكانيكياً ومصنعاً للنجارة..وأصلحوا بناء المقياس.. وأصلحوا شارع الفجالة.. ومهدوا طريقاً مستقيماً غرسوا على جانبيه الأشجار من الأزبكية إلى بولاق.. ومدوا الطريق بين باب الحديد وباب العدوى.. وأنشأوا منتدى للتنزه.. وأقاموا مسرحا.. وخلاصة ما تقدم أن أعضاء المجمع بذلوا جهوداً كبيرة فى خدمة العلم والفن وكانوا دائمى النشاط مجدين فى أعمالهم مثابرين فى أبحاثهم، فكان المجمع العلمى من أعظم المجامع العلمية قدراً وأكثرها ثمرة "[91]. وإذا كان أشاد فى أكثر من مرة بإنجازات المجمع باعتباره بقى الأثر الوحيد الباقى من آثار الاحتلال..فإنه أشاد بدور بونابرت فى ذلك[92]. وفى الإطار السابق أشاد بالمطبعة التى " أخذها الفرنسيون معهم عند جلائهم " وبالتنقيبات الأثرية للعلماء " نقبوا على الآثار.. وبذلوا جهوداً عظيمة فى اكتشافها، فأزاحوا الستار عن عظمة مصر القديمة، ودونوا أبحاثهم.. فكانت أعمالهم وأعمال أعضاء المجمع العلمى هى الخالدة من آثار الحملة الفرنسية (وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض) ". أما وصف مصر فهو " الكتاب الخالد.. أعظم كتاب ظهر فى العصر الحديث عن تخطيط مصر.. دائرة معارف لمصر القديمة والحديثة إلى انتهاء عهد الحملة "[93]. ومرة أخرى فإذا كان الرافعى تأثر أيضاً فيما كتبه بالمدرسة الأوروبية التقليدية، فإن ما كتبه سيترك

تأثيره الكبير والطويل المدى على الكتابات التاريخية المصرية، ولازالت الكثير منها تعول على وجهة نظره حتى الآن!!.

لم تخرج آراء صبرى السوربونى كثيراً عما سبق. فأوضاع مصر قبل (الحملة) غاية فى السوء " حل الجدب بالبلاد فحالت أخصب البقاع فلوات جرداء، وشلت حركة التجارة والزراعة والصناعة ". أما الشعب فكان " فى أتعس حال من الجهل والشقاء، فنسى ذكر ماضيه المجيد وما خلف من آثار وانقطع ما بينه وبين العالم الخارجى، وانصرف إلى العرافة والتنجيم والسحر والخرافات والبطالة ". أما " حملة العلم " فكانوا " حملة الشرع.. يتوهمون أنهم محيطون بالعلوم كافة ". وفى هذا الإطار تناول نتائج (الحملة) واعتبر أن لها " الأثر الأول فى تكوين مصر الحديثة إذ قضى الفرنسيون على زهرة الفرسان المماليك، فمكن ذلك محمد على فيما بعد من القضاء عليهم". ومع أن " الشعب لم يمل إليهم لأنهم أرهقوه بضرائبهم ولم يصانعوه" إلا أنهم فى الحقيقة " دخلوا هذا القطر لينقذوه من مظالم المماليك وينشروا فيه لواء العدل ". وهو يثمن تجربة الدواوين خاصة وأن ما ذكروه فى الديوان العام عن غنى مصر الذى أطمع الأمم والبلاد الأخرى فيها "كل ذلك كان من شأنه إيقاظ الشعور القومى..خصوصاً وأن زمن احتلال الفرنسيين كان زمن معارف من جهة وزمن حرب وثورة من جهة أخرى، فحدثت من جراء ذلك هزة عنيفة فى البلاد تمخضت عنها الفكرة الاستقلالية التى ظهرت ملامحها فى عصر محمد على". وبالتالى فعنده أن بونابرت " كان أول من أدخل المبدأ النيابى فى مصر " خاصة وأنه أدى لاشتداد ساعد العلماء والمشايخ " وكان لهم فيما بعد أثر كبير فى اختيار محمد على". أما مجىء العلماء مع الحملة للتنقيب عن آثارها والوقوف على أسرار طبيعتها المجهولة فإنه "لاريب.. أيقظ فى المصريين روحاً جديدة ". من ناحية أخرى" عمل الفرنسيون على تحسين العاصمة فأنشأوا طرقاً واسعة منتظمة فى المدينة وغرسوا الأشجار على حافتيها، وأرغموا السكان على الإضاءة ليلاً، وردموا بركة الأزبكية وحرموا الدفن فى جبانتها..اتباعاً لأصول الصحة، وأصلحوا مقياس الروضة". ونتائج الحملة عنده لها تأثيرها على تجربة محمد على الذى "نشأ فى كنف الحملة..

وفطن إلى أغراضها، فعول على تحقيقها وتكوين دولة كبرى مستقلة فى آسيا وإفريقية تكون مصر قاعدتها ". لقد" لمح..من خلال أعمال الفرنسيين فى مصر الحضارة الأوربية وأثرها فى تكوين الممالك والنظم الحديثة، فشرع فى الجرى على سياسة واسعة النطاق فى مصر والاستعانة بالفرنسيين فى تنفيذها"[94]. وإذا كان من الوارد أن السوربونى تأثر بما كتبه محمد رفعت، فمن الأوجه القول بأن كل ما كُتب فى تلك الآونة، إنما كان يمثل تياراً عاماً فى " المدرسة التاريخية المصرية " !!.

وعلى الرغم من دور محمد أنيس الرائد فى دراسة تاريخ مصر من منظور مادى[95] وجهره مُبكراً بأن دراسة تاريخ مصر فى العصر العثمانى "لم تُستكمل " لتركز الاهتمام على القرن التاسع عشر، ودور أسرة محمد على فى ذلك[96].. إلا أنه – واتساقاً مع منظوره فى تفسير تحول مصر من الإقطاع إلى الاشتراكية – اعتبر، وبشكل قسرى، أن المجتمع المصرى كان " إقطاعياً (من نوع معين) حتى القرن الثامن عشر " وإن شهد فى أواخره ظهور قوة اجتماعية جديدة تتمثل فى المشايخ ورجال الدين من ناحية، والتجار والحرفيين من ناحية أخرى. وتدريجياً اشتد ساعد هذه القوة " سياسياً أكثر منه اقتصادياً " حتى استطاعت إحراز انتصارات على البكوات المماليك فى صدامها معهم[97]. ومن الطبيعى فى ظل ذلك أن يكرر – رغم اختلاف المنهج – ما كان معروفاً عن التدهور السياسى والاقتصادى والفكرى لمصر فى العصر العثمانى، مع اعترافه بأن العصر فى حاجة إلى إعادة تقييم[98]. ومن هذا المنطلق جاء تفسيره لنتائج (الحملة).

فعنده أنها قامت بمحاولات مجهضة لهدم النظام الإقطاعى، مثل دورها فى زيادة نفوذ ونشاط الطبقة الوسطى المصرية الوليدة (خاصة المشايخ) ودورها فى توجيه ضربة قاتلة لحكم المماليك اللامركزى والإقطاعى والعسكرى " الأمر الذى أدى إلى تخلخل النظام الإقطاعى فى مصر من أساسه " رغم فشل محاولات الفرنسيين إيجاد حكم مركزى بديل بسبب الثورات المصرية المتكررة ومقاومة المماليك. كذلك حاول الفرنسيون إبان حكم مينو إزالة مظهر هام من مظاهر الأوضاع الإقطاعية فى

الزراعة، وهو تعدد الضرائب المفروضة على الفلاح بجمع الضرائب فى ضريبة واحدة، لكن لم يقدر النجاح للمشروع لرحيل الحملة. أما محاولات بونابرت بعث النشاط فى التجارة الخارجية فانتهت بالفشل سواء لعدم تنفيذ مشروع حفر قناة السويس، أو لعدم إثمار مراسلاته مع الحكام المسلمين فى البحر الأحمر وشمال إفريقيه، أو للحصار. أما محاولات الفرنسيين لإقامة المصانع فلم يقدر لها النجاح كثيراً. من ناحية أخرى " قام الفرنسيون دون قصد بمحاولة تحويل مصر إلى مجتمع علمانى قومى. فحاولوا استعداء المصريين على الأتراك عن طريق بعث الروح القومية المصرية الفرعونية والعربية عن طريق نشرات بونابرت المتكررة، وإن باءت أيضاً هذه المحاولات بالفشل لإدراك المصريين أنها للحيلولة دون قيام جبهة إسلامية موحدة ضد الحكم الفرنسى. كذلك يدخل فى باب هذه المحاولات ما فعله الفرنسيون من إنشاء فيلق من الأقباط يعمل فى خدمة الجيش الفرنسى وادعوا أن مثل هذه الخطوة مما يساعد على إدماج الأقباط فى جسم الأمة.. ولكن الواقع أن الفرنسيين قصدوا بهذه الخطوة.. تفرقة عنصرى الأمة، واستغلالها إلى أقصى حد لحكم البلاد "[99].

وفى السياق السابق سار جلال يحيى، فهاجم كتابة التاريخ وفق هوى الحكام، خاصة الذين يمولون كتابته، وطالب بـ" إعادة كتابة تاريخ مصر الحديث" بالربط بين العوامل الاقتصادية والاجتماعية والاستراتيجية والسياسية وبين البنيان الفوقى والبنيان التحتى، كما اعتبره يبدأ منذ 1517م. ومع مجاراته للقائلين بأن العصر العثمانى كان عصر تدهور، إلا أنه اعتقد أن الدراسات المتعمقة ربما أبرزت وجود بعض علامات التطور فيه، خاصة وأن نهايته شهدت تغيراً " بعد مرحلة السكون والخمود " لزيادة " الأضواء المسلطة على مصر نتيجة لبدء التفكير لدى بعض دول الغرب فى إحياء طريق التجارة العالمية القديم.. ومحاولة الوصول إلى الهند من طريق قصير " [100] وهذا يعنى أن التطور عنده ارتبط بالعوامل الخارجية فى الأساس.

وفى ظل تشابه المنهج والمناخ العام، اقترب يحيى إلى ما انتهى إليه أنيس، واعتبر

أن (للحملة) تأثيراتها المهمة؛ فمعها وجدت مصر نفسها " فجأة " فى مواجهة نمط جديد من الجندية ونظم الحكم وطريقة التفكير والعمل، وهو ماكان صدمة قاسية وكافية لإيقاظ المصريين. والحملة تعتبر " فاتحة لعهد جديد " لمحاولتها كسب المصريين، بإعلانها أنها جاءت لتخليصهم من تحكم الأتراك والمماليك، ولمجيئها إليهم بمبادئ الحرية والإخاء والمساواة. أما الاختلاف فى اللغة والدين والعادات وتحكم الأجانب، فأدى للمساعدة على بعث الروح الوطنية.. وظهور قيادات جديدة تشارك فى ممارسة السلطة بطريقة حرمت منها من قبل. والصدام بين "النظم الإقطاعية القديمة والقوات الاستعمارية.. البورجوازية " سيساعد على تحطيم قوى الإقطاع فى مصر، بعد هزيمته العسكرية. ورغم الأهداف الاستعمارية للحملة، إلا أنها ساعدت على تبلور الشعور الطبقى بين المصريين والمماليك. وبتعاصر إضعاف النظام الإقطاعى مع ظهور روح المقاومة الوطنية، تهيأت البلاد لتغيير أساسى فى بنيانها الاقتصادى والاجتماعى.كذلك قامت الحملة بإدخال نظم جديدة أهمها فرض الضرائب المباشرة وتسجيل عقود الملكية والمبانى والحوانيت، ووضعت ميزانية لها إيرادات ومصروفات، وأوصت بضرورة العناية بمشروعات الرى والاهتمام بالمحصولات الصيفية، علاوة على إنشائها المصانع اللازمة لتزويد قواتها بالذخائر والملابس والمواد الاستهلاكية. وإن كانت الحملة لم تصل بالفعل إلى القضاء تماماً على نظام الإقطاع.. لقصر المدة التى مكثتها.. وانشغالها بالظروف الاستراتيجية وبالحروب والثورات، إلا أنها أقلقت هذا النظام من أساسه، ومهدت الطريق أمام العمليات التى قام بها محمد على"[101].

وإذ طالب أنيس ويحيى بإعادة النظر فى أوضاع مصر فى العصر العثمانى، ومع ذلك بالغا فى نتائج الاحتلال، فإن أحمد عبد الرحيم مصطفى أعاد التأكيد على سيطرة التخلف والجمود على ذلك العصر، ولكنه خفف من غلواء ما قيل عن نتائج (الحملة). فمع قوله بأنها كسرت " جدار العزلة.. وحطمت التركيب العضوى للوظائف والحقوق، فمهدت السبيل لضعضعة البنيان الاجتماعى القائم.. وهدت قوى المماليك المادية والمعنوية فمهدت للقضاء النهائى عليهم، وأفسحت بذلك

المجال لإدخال النظم الحديثة.. وخلق نظام سياسى- اجتماعى على أنقاض تنظيمهم ".. إلا أنه يرى أن " الحكم الفرنسى القصيرلم يترك آثاراً ذات بال فى المجالين الاجتماعى والثقافى، برغم أن عيون المصريين تفتحت على آفاق تدفعها الأفكار الجديدة وتسيطر عليها قوى العلم والتنظيم. أما القول بأن الحملة هى التى أثارت الوعى القومى والدستورى وأعدت المصريين للحكم الذاتى فإنه يتضمن نوعاً من الإسراف " لأن حواجز اللغة والدين والقيم الاجتماعية حدّت من تفاعلهم بالمؤثرات الغربية " خاصة وأن الجهل والأمية كان فاشيين "[102]. فهل فتح بذلك باباً " مصرياً " – ولو ضيقاً – للتشكيك فى نتائج (الحملة)؟. ربما، خاصة وقد تعاصر مع ذلك – وتلاه – تطورات مهمة؛ سواء تلك التى شهدها حقل الدراسات العثمانية، أو فى تطور رؤية بعض المؤرخين الأمريكيين والأوربيين.

كان رءوف عباس من أولئك الذين طوروا وجهة نظرهم تجاه نتائج (الحملة) استجابة للتطورات المعرفية. ففى نهاية سبعينيات القرن الماضى كان يرى أن العصر العثمانى عصر انحطاط، وإن اعتبر القرن الثامن عشر بمثابة انتقال لتاريخ مصر من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة بسبب ما شهده من" محاولات " سياسية لإبراز كيان مصر الخاص" وما صاحبها من " صحوة فكرية ". وفى الوقت نفسه اعتبر أن الحملة " كانت ذات شأن عظيم " بما نجم عنها من " آثار تتلخص فى هز دعائم الحكم العثمانى، وإتاحة الفرصة لإبراز الكيان المصرى من خلال المقاومة الشعبية التى قادتها زعامات مصرية.." ولكنه لم يمل " للمبالغة فى تقدير الأثر الذى تركته على التطور الاقتصادى والاجتماعى والثقافى والسياسى فى مصر"[103]. وفى نهاية الثمانينيات طوّر موقفه من جديد. فرغم استمراره فى الحديث عن سيطرة الجمود والتخلف فى مصر إبان العصر العثمانى.. إلا أنه أعادهما لظروف تاريخية سابقة على دخول العثمانيين " التحديات الخارجية التى تعرضت لها المنطقة وماترتب عليها من إغلاق باب الاجتهاد.. وطرح المنهج العقلى.. واتجاه العلماء إلى التقليد". بل وطرح أيضاً ضرورة إعادة النظر فى مقولات " الجمود والركود الفكرى " و" الموسوعات " وقال بأن مصر شهدت فى القرن الثامن عشر "حركات

إصلاحية محدودة استهدفت تطهير السلوك الدينى..كما شهدت إرهاصات نهضة فكرية " ولعب علماء الأزهر دوراً بارزاً فى الحياة الاجتماعية[104]. على أنه – ومنذ التسعينيات– أصبح من المشاركين فى التطورات التى تعيد النظر فى حقيقة أوضاع مصر فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر؛ إما من خلال ترجمته للعديد من المؤلفات، أو من خلال تشجيعه للدراسات فى العصر العثمانى[105]. وفى هذا الإطار انتهى" قلقه الفكرى " إلى " ضرورة إعادة تقييم حدث الحملة.. على ضوء الظروف الموضوعية التى أحاطت به كما تكشفها الوثائق.. وضرورة إعادة النظر فى المبالغة غير المنطقية فى الآثار (الحضارية) أو (الثقافية) التى ترتبت على الحملة". ومع ذلك " لا يعنى هذا أن الحملة كانت مجرد (سحابة صيف) فى سماء تاريخ مصر، فقد كشفت للمصريين عجز وفساد النظام العثمانى/ المملوكى القديم، وأكسبتهم قدراً ملحوظاً من الثقة بأنفسهم تجلت فى الحركات الاحتجاجية التى شهدتها السنوات التالية لجلاء الحملة عن مصر، والتى توجت باختيار محمد على والياً على مصر بإرادة نخبة المصريين فى عمل غير مسبوق فى تاريخ الحكم العثمانى "[106].

أما عاصم الدسوقى فأكد من جديد وجود نتائج مهمة للحملة، حتى وإن كانت استعمارية وإن لم يقصد الفرنسيون ذلك. فبونابرت " عمل على تنظيم أمور الإدارة والحكم..على نمط ما حدث فى فرنسا بعد الثورة من حيث نقل السلطة إلى الطبقة الوسطى"، ومع أنه " كان نقلاً شكلياً بحتاً دون أن تكون هناك فرصة حقيقية للممارسة الفعلية "، ومع أن السلطة النهائية كانت بيد الفرنسيين.. فإن تأسيس الديوان " كان نواة لنظام نيابى لم تكن تعرفه البلاد من قبل" كما أن " وجود نواب عن المصريين له فوائد من حيث استثارة الروح القومية " وهو ما بدا ظاهراً فى المقاومة والثورة حيث "لم ينخدع المصريون بمظاهر الشورى والمشاركة". أما علماء الحملة فتوصلوا لدراسة واقع مصر، ودفعهم الحصار الانجليزى لتنفيذ بعض المشروعات فى مجالات الزراعة والصناعة والتجارة والصحة والقضاء. وإذا كان بونابرت وكليبر لم يتمكنا من تنفيذ سياسات فى المجالات الاقتصادية والاجتماعية، نظراً لعدم الاستقرار.. فإن مينو، لنيته البقاء فى مصر وتحويلها إلى مستعمرة، بدأ فى

ذلك وإن حال الجلاء دون تنفيذ مشروعه " العظيم ". أما التأثيرات الفكرية فكانت الأبرز لمجيء طائفة من علماء فرنسا النابغين فى مختلف فروع علوم العصر، والمجمع العلمى الذى أقامه بونابرت وجعل فى عضويته " خلاصة علماء الحملة " وكان غرضه " ربط السياسة بالعلم ". وكان وجود المجمع العلمى بكل إنجازاته نافذة أطل منها المصريون على تقدم أوربا فى العلوم والأفكار السياسية والاقتصادية، بحيث اعتبرت الحملة صدمة حضارية وثقافية. ومن الناحية الاجتماعية " نبهت الأذهان إلى وجود أنماط من الحياة والعلاقات فى أوربا تختلف عن تقاليد المجتمع الشرقى، ومن ثم نزع البعض إلى محاكاة هذا النوع من الحياة. من ناحية أخرى تعتبر الحملة بما حملته من أفكار فى الحكم والسياسة والاقتصاد والاجتماع بداية ظهور تنازع الولاء بين الفكرة الدينية.. التى تقوم على طاعة الخليفة والسلطان وأولى الأمر، وبين الفكرة العلمانية التى تقوم على عزل الدين عن السياسة وأمور الحكم "[107].

ورغم كل التطورات السابقة، تفاوتت رسائل الماجستير والدكتوراه.. تفاوتت فى التعامل مع نتائج الاحتلال. لقد كتب وجيه حمزه عن نتائج سياسية واقتصادية وإدارية للحملة، ولكن بشكل مرتبك ومشوش، ويفتقر المنهجية[108]. أما نبيل الطوخى فقلل من نتائج (الحملة) فى الصعيد لعدم قدرة الفرنسيين من السيطرة التامة عليه، والمقاومة وعدم التعاون من الأهالى، وهو ما قوبل بالمزيد من القسوة والإرهاب. وعنده مثلاً أن ما استحدثه الفرنسيون من تنظيم إدارى خدم مصالحهم بالدرجة الأولى ولم يكن لصالح الأهالى أو للعمل على راحتهم. أما الدواوين فكانت وسيلة تمكنهم من الاتصال بأعيان البلاد وتفهم مايجرى فى أنفسهم وتفهيمهم حقيقة مشروعاتهم ونياتهم حتى لايبقى مجالاً لدس الدسائس وسوء الفهم. ونتيجة للغزو والحصار.. زادت الأعباء الضريبية على فلاح الصعيد زمن الاحتلال، وتراجعت التجارة ولم تتطور الصناعة[109].

أما ناصر إبراهيم فكان أول المصريين المتخصصين فى تاريخ الاحتلال إدراكاً لمعنى الكتابة بالنظرية والمنهج. وفى أطروحته للدكتوراه ناقش نتائج الاحتلال بالإجابة على تساؤلات دقيقة منها : إلى أى مدى كان للحملة دور فى إحداث تغيير

ما على هيكل النظام الاقتصادى والاجتماعى فى الصعيد من خلال تعاملها مع النظام المالى؟ وإلى أى مدى عملت للقضاء على المماليك فى الصعيد؟. وعنده أن سلطات الاحتلال -رغم ضجيج الدعاية- لم تكن تنوى إقصاء المماليك عن قرى التزامهم شريطة أن يكفوا عن عدائها، الأمر الذى يؤكد بأن قضية الالتزام كنظام لإدارة الحيازات الزراعية لم تكن محور اهتمامها، وأن الأولوية كانت موجهة لاحتواء المماليك وبذل كل ما يمكن أن يدفعهم للتعاون. ومع ذلك لم تنجح سياسة الاحتواء وظلت غالبية المماليك مصدر قلق دائم للفرنسيين، وحالوا دون سيطرتهم على الموارد الضريبية فى معظم أقاليم الصعيد، مما اضطر بونابرت إلى المضى قُدماً فى مصادرة قراهم[110]. ومع أن الغزو-كسلطة جديدة لها حق التصرف بما يتفق ومصالحه- فتح ملف العلاقة بين السلطة المركزية ومُلتزمى الأراضى.. فإن مناقشات الديوان بينت أن الالتزام ليس مجرد نظام مالى ولكنه نظام اجتماعى-اقتصادى ترتبط به مصالح فئات اجتماعية متعددة بل ومصالح المؤسسات الدينية، وأن التفكير فى الإطاحة به يعرض مجمل التنظيم التقليدى للخطر ويوسع دائرة الصدام، وهو ما حرص الاحتلال على تفاديه خاصة بعد تحطم الأسطول. وقد أدى ذلك لإقرار الالتزام كإطار عام ينتظم من خلاله مجمل السياسة المالية، وليظل التغيير الحقيقى قاصراً على ما أصاب التزامات المماليك المُصادرة، مماسيهدد الوضع الطبقى للمماليك ويؤثر تأثيراً سلبياً وعميقاً على مستقبلهم السياسى. وهكذا فإن "التفكير الجدى فى الإجهاز على نظام الالتزام..لم يكن نتاجاً لهدف أيديولوجى كانت حكومة الاحتلال تبشر به منذ البداية وتعمل طوال الوقت على تحقيقه"[111].

من ناحية أخرى فلما لم يكن لدى الفرنسيين تصور ناجز لإدارة جباية الضرائب من القرى، وفشلوا فى البحث عن ملتزمين أو مستأجرين.. فقد اضطروا للاعتماد على مشايخ القرى وإرغامهم على تحمل مسئولية الجباية، ومن ثم برز دورهم كأهم طبقة يمكن الركون إليها فى حفظ الأمن وجباية الضرائب. وإذا كان ذلك يمثل امتداداً لدورهم التقليدى، والذى سيستمر فى عهد محمد على، إلا أنه كان يعنى تعزيزاً لوضعيتهم كأهم طبقة فى المجتمع الريفى تتمتع بالثراء الواسع والسلطة. وفى

مقابل ذلك انزوى دور كبار الملتزمين من الأمراء المماليك. ومن ثم فاللحظة التى أعلن فيها عن ضم (قرى المماليك) لأملاك (الجمهور الفرنسى) كانت فارقة، وتلاشت بعدها صورة سادة الأمس فى عيون فلاحيهم الذين ارتبطت قراهم بالدولة المركزية. ومع ذلك فإن إدارة الجباية فى (قرى الرعايا) لم تلق تحديات أقل مما واجه نظيراتها فى (قرى الجمهور) وبات واضحاً صعوبة ترويض الريف، خاصة فى الصعيد، على التجاوب مع الإدارة المالية التى لم تستطع تحقيق سيطرة على جميع الموارد الضريبية، مما فاقم أزمتها المالية لحد عجز الخزانة عن تأمين الاحتياجات الأساسية للجيش. وهنا لم يجد الفرنسيون سوى الإطاحة بـ" الوسطاء" وبالنظام المالى الذى يشملهم وإدخال تغيير جذرى يختزل المسافة الفاصلة بين دافعى الضرائب والسلطة المركزية بهدف السيطرة على معظم الفائض. ومع أن وصول العثمانيين والإنجليز حال دون تحقيق ذلك، فإن التجربة تركت آثاراً عميقة، خاصة بعد إضعاف قوة المماليك إلى أقصى حد، وهو ما مهد الطريق للإجهاز على نظام النظام بعد 1801[112].

وهو يفرق بين نتائج الاحتلال كضرورة فرضتها ظروفهم وبين كونها أهدافاً طمحوا لتحقيقها. وهكذا لم يكن الجلاء الاضطرارى للحملة هو الذى أبقى مساوئ نظام الالتزام وحرم الفلاح من التمتع بالملكية، ولم تكن عقلية الفلاح منحطة أو أقل نزوعاً لامتلاك الأراضى، وأن الدعاية المستمرة هى التى أدت لتلك الاعتقادات، وتم التحامل على الحقائق أو حتى طمسها. وبصفة عامة تبدو محصلة تأثير الاحتلال على مجتمع الصعيد محدودة إلى أقصى حد، إن لم تكن سلبية فى معظمها. فقد كان فشلهم فى القضاء على المماليك أو فى إلحاق هزيمة ساحقة بهم سبباً فى خراب العديد من القرى، خاصة وقد ساهمت الأزمة المالية فى إهمال الإدارة المالية لشبكة الرى، كما أن السباق المحموم بين الفريقين على جمع الضرائب، فى الوقت الذى لم يكن أى طرف يعترف بما سدده الفلاحون للطرف الآخر- أفقد الكثيرين الحافز على الإنتاج واكتفوا بزراعة مساحات معينة.. وكان هذا نوعاً من المقاومة السلبية التى رمت إلى حرمان الجانبين من الحصول على ضرائب الأراضى.

وعلى خلاف ما أشاعه البعض من دور بعض الأقباط المؤيد للفرنسيين، أثبت دورهم فى المقاومة، واستخدامهم "سلطة المعرفة والكفاءة الحسابية". وعنده أن هم الإنفاق " ربما يلقى بظلاله على الظروف التى أملت على بونابرت ضرورة اصطحاب مجموعة ضخمة من العلماء.. ليدفع بهم إلى دراسة أحوال مصر الاقتصادية والطبيعية، بُغية التعرف على المصادر المهمة التى تؤمن تغطية نفقات مشروع إقامة مستعمرة فرنسية "(113).

جسر للتواصل: لعبت عفاف لطفى السيد دوراً بنَّاءً فى كتابة تاريخ مصر الحديث حتى اعترف بفضلها الكثير من المؤرخين الأمريكيين والفرنسيين والمصريين، وجاء ذلك فى جزء منه بسبب إعادتها النظر منذ وقت مبكر فى نتائج الاحتلال الفرنسى. وعندها أن مصر شهدت العديد من التطورات فى القرن الثامن عشر مثل نمو تجارتها الخارجية استيراداً وتصديراً، وأن الأرض الزراعية أصبحت "تُعامل كما لو كانت سلعة"، ونمو دور الشرائح الغنية من الصفوة الوطنية والحضور المتزايد للتجار والعلماء فى صفوف المُلاَّك، وأن المعاملات النقدية أصبحت أمراً مألوفاً أكثر من ذى قبل، وظهور " المسحة شبه الوطنية " لثورات تفجرت ضد الاستغلال المتزايد من البكوات المماليك باعتبارهم " طبقة حاكمة أجنبية ". ومع ذلك فالقطيعة الكاملة بين الحكام والمحكومين لم يكن قد آن أوانها، وكانت الأمور بحاجة إلى الاحتلال الفرنسى والفشل الواضح للبكوات فى أداء واجبهم وحماية البلاد من الغزو، وذلك هو الحادث المنفرد الوحيد الذى يفسر سبب قيام الأهالى وقياداتهم الوطنية بالتحول إلى شخصية مجهولة مثل محمد على بدلاً من قبول حكم البكوات مرة أخرى(114). وهى تربط بين رغبة الاحتلال فى استغلال ثروات مصر من المواد الخام والحبوب لإطعام جنوب فرنسا، وبين خططه فى البداية لإصلاح ضرائب الأرض.. لكن العملية بأكملها انتهت للعدم بسبب ثورة القاهرة الأولى. ورغم تكرار المحاولات - خاصة فى عهد مينو - إلا أنها لم يتحقق من ورائها سوى القليل لاستمرار المشاكل التى أثارها المماليك والعثمانيين والانجليز. وعلى كلٍ فإن قصر فترة بقاء الاحتلال كانت غير كافية " لأن يترك

خلفه أية آثار "، ومن ثم فإنه "لم يُغيِّر مصر بالقطع اقتصادياً أو سياسياً أو ثقافياً، على الرغم من أنه كثيراً ما ترددت مزاعم بأنه فعل ذلك. لقد كانت فجوة زمنية فى التاريخ المصرى وكانت لها أهميتها لأسباب أخرى لأنها حطمت آخر الصلات بين الأهالى والبكوات الذين عجزوا عن إنقاذ مصر من الغزو، وجلبت خبراء فنيين فرنسيين، كثير منهم من أتباع مذهب سان سيمون ممن ألهمتهم الآثار القديمة التى رأوها فى مصر لأن يعودوا إليها ويحاولوا وضع نظرياتهم موضع التجربة ويقدموا خدماتهم لمحمد على بعد 1815، كما أن تسريح الجيش الفرنسى آنذاك جعل معظم رجاله بلا عمل، وهو ما كان بمثابة حافز إضافى لحضور بعضهم إلى مصر[115]. ومن الواضح أن هذه المنطلقات التى كانت جديدة فى حينها بُنيت عليها أسس دراسات تالية، ومن ثم اعترف بفضل عفاف لطفى كثيرين منهم بيتر جران وكينيث كونو وغيرهم.

* * *

صفوة القول: إن الكتابات التاريخية المصرية استمرت لوقت طويل تنظر إلى نتائج الاحتلال الفرنسى من منظور فرنسى/ أوربى، مدفوعة فى ذلك بعوامل معرفية وسياسية، لاسيما فى النظر إلى القضية من منظور التقييم التقليدى لأوضاع مصر فى العصر العثمانى. وإذا كانت هناك بعض محاولات التجديد فى كتابة تاريخ مصر الحديث منذ ستينيات القرن العشرين، فإنها لم تكن لتطال نتائج الاحتلال. أما التغيير الجوهرى للنظرة التقليدية فجاء من جرَّاء إعادة تقييم عهد محمد على فى ضوء ما أنتجته الدراسات الجديدة عن أوضاع مصر فى القرن الثامن عشر. وبناء على ذلك – وبالعودة إلى المصادر الرئيسية، والوعى بالعلاقة بين الأيديولوجيا وكتابة التاريخ – بدأت بعض الدراسات التاريخية المصرية فى تناول نتائج الاحتلال الفرنسى بعيداً عن الانبهار.

إن ما سبق يؤكد على أن حدث الاحتلال الفرنسى وإن كان فريداً ومثيراً فى حينه لجسامته، وهو ما عبر عنه الجبرتى.. إلا أنه لا يزال مُثاراً ومثيراً حتى الآن لما ترتب عليه من خلاف يتصل بإشكالية بداية التحديث فى مصر والمنطقة، وهو الخلاف

الذى يعكس قضية أكبر، يمكن صياغتها فى السؤال : هل فرنسا (الغرب) كانت صاحبة الريادة فى حمل رسالة التحديث، أم أن مصر (الشرق) كانت قادرة على القيام بذلك بنفسها؟. وإذا كانت الكتابات التاريخية قد اختلفت - ولا تزال - فى الإجابة عن السؤال، فإن هذا يعكس أهميته لكونه يطرح إشكالية المعانى الحقيقية للتخلف والجمود والمحافظة فى مقابل التطور والتقدم والتحديث. وهل يجب النظر إلى تلك المفاهيم بمعايير تُثمن خصوصية وقيمة التطورات التى شهدتها مصر قبل الاحتلال الفرنسى حتى ولو اختلفت مع قيم التحديث عند الغرب؟ أم أنه من الضرورى النظر إلى ما حدث باعتباره لا ينتمى إلى التحديث الذى كان وليد الاحتلال فقط؟!. وهنا يُطرح السؤال من جديد: ما هو التحديث (الحداثة) بالتحديد، وهل ترتبط ماهيته ومعاييره بالمحددات الغربية فقط؟ وهل له وطن بعينه يخرج منه ؟!. إن الإجابة على تلك الأسئلة وغيرها لاتزال فى حاجة للمزيد من الدراسات المتخصصة والجادة والواعية. لقد استغرقت " المدرسة التاريخية المصرية" زمناً طويلاً لكى تبدأ فى التخلص من هيمنة التفسيرات الغربية لنتائج الاحتلال الفرنسى، وهى التفسيرات التى لا تزال موجودة بقوة وجاذبيه، سواء بوعى واقتناع، أو بدون. وما نأمله ألا نأخذ فترة أطول فى ترسيخ أسس مصرية تتعامل مع تاريخ مصر باستقلالية فكرية، وأن نقرأ ما يُكتب عنها قراءة واعية. وعلى كل فإن هذه الأمور وغيرها تثبت أننا فى حاجة لتوسيع مجال نقد الدراسات التاريخية الذى لم يعد ترفاً – ولا كان – بل أصبح ضرورة [116] حتى نتحول إلى منتجين للمعرفة فى الحقل التاريخى، بدلاً من الاكتفاء بدور المُستخدمين لها أو التابعين.

هوامش الدراسة

(1) طالما استُخدم مصطلح الحملة للإشارة إلى الاحتلال/ الغزو الفرنسى، رغم أن مصطلح الحملة فى الفرنسية له عدة معان، فهو : expédition أى حملة/ رحلة، وأيضاً رسالة، وخاصة رسالة بحرية : وهى السفينة والبضاعة المشحونة عليها مما يكون معرضاً للأخطار البحرية فى أثناء السفر. وهو campagne أى حملة. وهو بذلك يختلف كثيراً أو قليلاً عن الحقيقة. واعتقادنا أن الأصح استخدام مصطلح الاحتلال أو الغزو لأن مصطلح الحملة، بالإضافة إلى عدم دقته، يعبر عن نزعة لتخفيف وقع ما حدث. وبالنسبة لنا سنستخدم مصطلح الاحتلال، ولكن سنُبقى غالباً على ما استخدمته الدراسات التى عرضنا لها كما هو. ومن الطريف أن العادة قد جرت فى مصر على استخدام مصطلح الحملة، رغم استخدام بعض المؤرخين الفرنسيين مصطلح الاحتلال !!. رجعنا فى ذلك إلى بعض المعاجم اللغوية مثل : القاموس القانونى (فرنسى – عربى)، مكتبة لبنان، ط3، 1991، وهو من وضع إبراهيم نجار وآخرين.

(2) فى إطار تباين الآراء وكون القضية أصبحت محل نقاشات واسعة ساهمت فيها أقلام أساتذة فى أقسام اللغة الفرنسية، ومثقفين ومفكرين، بالإضافة للمؤرخين، تعدى الأمر مناقشة نتائج الاحتلال / الحملة وطُرحت قضايا تتناول فى مجملها علاقة الغرب بالشرق حتى الحملة الأمريكية على العراق. انظر العروض الضافية فى: د. ليلى عنان : الحملة الفرنسية : تنوير أم تزوير؟ القاهرة، كتاب الهلال، العدد 567، 1998. الحملة الفرنسية فى محكمة التاريخ، القاهرة، كتاب الهلال، عدد 574، 1998، د. مصطفى عبد الغنى : حقيقة الغرب بين الحملة الفرنسية والحملة الأمريكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2001. محمد إسماعيل زاهر : أزمة الوعى العربى بين الحملة الفرنسية والحملة الأمريكية، مركز البحوث العربية والإفريقية، القاهرة، 2004.

(3) كرستوفر هيرولد : بونابرت فى مصر، ترجمة : فؤاد أندراوس، مراجعة : د.محمد أحمد أنيس، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986، ص 138.

(4) ذكرت ريفلين أنها " وحتى قبل سقوط الأسرة الحاكمة السابقة فى مصر " أرادت إعادة تقييم " ما قام به مؤسسها لتقويم التحريفات التى دسها عليجمهور ساذج المؤرخون الرسميون وغيرهم ممن خلبت ألبابهم أسطورة محمد على". أما هيرولد فمن الواضح أنه كان يحترم ثورة 1952. فعند إشارته إلى محمد على يقول " مؤسس الأسرة المالكة التى ختمها الملك فاروق ختاماً غير مُشرِّف ". كما اعتبر مشاركة انجلترا فى عدوان 1956 على مصر " أحدث أمثلة التخبط " السياسى لها. وعلى كل قدمت المدرسة الأمريكية عدداً من الكُتَّاب والباحثين الذين كتبوا بإنصاف عن مصر. ومنهم ألبرَت فارمان فى " مصر وكيف غُدر بها " ودافيد س. لاندز فى عمله المهم " بنوك وباشوات ".

هيلين آن ريفلين : الاقتصاد والإدارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر، ترجمة : د. أحمد عبد الرحيم مصطفى، مصطفى الحسينى، دار المعارف، 1968، ص 7. وقد تُرجم عنوان الدراسة للعربية بتصرف كرستوفر هيرولد : بونابرت فى مصر، ص 332، 367.

(5) لقد أعادت، وبشكل مُبكر، تقييم الوضع السياسى فى مصر، واعتبرت أن الصراع على السلطة أواخر القرن 18 اقتصر على الفئات الحاكمة، ولم يكن يمس السكان إلا حين تزداد مُطالبتهم بالمؤن والضرائب.. وأن البيروقراطية الإدارية - التى واصلت عملها بغض النظر عمن يكون فى السلطة - أنقذت المجتمع من الفوضى الكاملة، وأن سكان الريف والمدن الصغيرة.. توصلوا إلى أساليب تمكنهم من التكيُّف مع الظروف السياسية القائمة ". ومن هنا كتبت " وقد أساء الزوار الغربيون لمصر فى القرن الثامن عشر فهم هذا الوضع، فلم يروا شيئاً غير الفوضى السياسية ووصلوا إلى نتيجة مفادها أن الحكومة لا تقوم إلا على نظام من الاستغلال ولا توفر أى حماية للسكان ". وعندها أن النظام التركى- المملوكى لم يكن يتصف بالفوضى أو التعسف بقدر ما كان رجعياً. ولكن حين اختل التوازن القديم الذى حافظ على عناصر المجتمع المصرى لعدة قرون، بسبب عوامل خارجية، أصبح من الضرورى أن تُستبدل الأشكال العتيقة من التنظيم الاجتماعى والنظم السياسية بأشكال أكثر صلاحية. هيلين ريفلين : الاقتصاد والإدارة، ص21، 22.

(6) اعتبرت الاحتلال مرحلة فى الصراع بين الدول الأوربية لبناء الإمبراطوريات والحصول على الامتيازات التجارية والصناعية. وكتبت " كان المماليك طغاة لكنهم كانوا مسلمين، وكانت إدارتهم تتسم بالفوضى فى نظر الأجنبى لكن فهمها المصريون الذين كانوا يعرفون كيف يتملصون من أسوأ مظاهر الحكم التعسفى. وعندما أجبر الفرنسيون على الجلاء استقبل الأهالى سادتهم الأتراك فرحين. ربما ندموا أحياناً على رحيل الفرنسيين ولكنهم رأوا أن حاكماً مسلماً سيئاً أحسن بكثير من كافر طيب ". المرجع السابق، ص22- 27.

(7) هيلين ريفلين : الاقتصاد والإدارة، ص 32، 33.

(8) وعندها أن الإصلاحات التى اقترحها بونابرت "لم تخرج إلى حيز التنفيذ " لأن ثورة القاهرة الأولى قضت على مشروعاته " وبعد إخماد الثورة فُرضت الضرائب.. ولكنها كانت إجبارية أكثر منها جزءاً من خطة عامة للإصلاح الزراعى ". هيلين ريفلين : المرجع السابق، ص 66 - 69.

(9) وأوضحت أن هدف مينو " كان مزدوجاً.. أن يجعل مصر مستعمرة فرنسية وطيدة الأركان ويحقق رخاء الشعب المصرى. ولهذا أدخل على الحكومة المركزية والحكم المحلى إصلاحات.. الهدف منها الحد من العجز والإهمال واختلاس الدخل من جانب الإداريين الفرنسيين أنفسهم؛ فأُعيد تنظيم الإدارة المالية.. وفُرضت قائمة طويلة من الضرائب.. ورغم ثقل هذه الضرائب فإنها امتازت بتحديد مقاديرها، كما أنشأ هيئات تمثيلية فى المدن والأقاليم ليخلق بين المصريين إحساساً بالمسئولية، وأُدخلت إصلاحات على القضاء ووُقعت معاهدات صلح مع عدد من قبائل العرب وقُدمت لمراد.. تنازلات جديدة لكسب تأييده والمحافظة على السلام.. وأُجريت دراسات لنظام الرى.. ووُضع برنامج صناعى للمستقبل وأُجريت تجارب لإيجاد حاصلات زراعية جديدة ". ونتيجة فشل الحملة فإن " الإحساس بالقدر التاريخى " و " الآمال الكبار " و " الحماس الجارف " الذى تملّك الباحثين الفرنسيين الذين رغبوا فى مرافقة نابليون والذى كان شبيهاً بـ" وباء الجنون ".. كان مُعادلاً لمدى " خيبة آمالهم " عند رحيلهم من مصر. المرجع السابق، ص 25، 69، 70.

(10) للمزيد راجع : كرستوفر هيرولد : بونابرت فى مصر، ص 7، 10، 13، 14، 18- 22.

(11) كتب وزير الخارجية الفرنسى تاليران فى أغسطس 1798 " ومن حسن الحظ أن أتاح لنا موقف الأمراء المماليك، الذى غلبت عليه الوقاحة والوحشية باستمرار، وعجز الباب العالى عن الانتصاف لنا منهم، أن ندخل جيشنا فى مصر وأن نثبت أقدامنا فيها دون أن نُعرض أنفسنا لتهمتى الاغتصاب والجشع.. إن الإدارة مصممة على الاحتفاظ بمركزها فى مصر بكل الوسائل الممكنة ". هيرولد : بونابرت فى مصر، ص143.

(12) أشار إلى ما كتبه بونابرت عن أهمية الشرق التى لا تُعتبر أوربا فى مقابله سوى " تل صغير حقير.. لا تتيح مجالاً كافياً للأمجاد. فلابد إذن من الذهاب إلى الشرق لأن كل مجد عظيم لم يظفر به أصحابه إلا فى الشرق ". أما التقرير الذى كتبه بونابرت لحكومة الإدارة بعد جولته التفتيشية السريعة بمناطق الغزو المزعوم لانجلترا فى فبراير 1798 وأظهر فيه أن " الموارد العسكرية والمالية المتاحة ناقصة نقصاً شديداً، وأنه ربما كانت اللحظة المواتية للغزو قد فاتت إلى الأبد، وأن على فرنسا أن تختار بين : إما أن تعقد الصلح مع انجلترا، وإما أن تغزو هانوفا بدلاً من الجزر البريطانية، وإما أن تستولى على مصر فتقطع بذلك شريان الحياة بينها وبين الهند ".. فقد علق عليه هيرولد بأن بونابرت إنما أراد بحديثه المتشائم عن صعوبة غزو انجلترا أن يضع حكومة الإدارة أمام اختيار غزو مصر لرغبته فيه. المرجع السابق، ص10- 12، 23- 25، 28، 29.

(13) وكتب " ولما كانت مصر لم تنضج بعد لتقبل ما يجلبه الحكم الفرنسى من إصلاح ومزايا، لم يكن بد من كسب الشعب بطرق أقل مباشرة. فما داموا لا يحترمون غير القوة فيجب أن يحكموا حكماً حازماً، وما دام الحافز الوحيد لهم هو النعرة الدينية فلابد من توجيه هذه النعرة واستغلالها ". وعلى كل حاول بونابرت استخدام الدين فى مصر كما استخدمه الاسكندر الأكبر من قبل. المرجع السابق، ص 195- 197.

(14) المرجع السابق، ص 169، 170، 266 - 269.

(15) وكتب "لم يكن يُحسن القراءة والكتابة سوى الأقباط وحفنة من المشايخ.. أما الجامع الأزهر.. وإن احتفظ بسمعته.. إلا أنه حفل بالمتعصبين من الشحاذين والدراويش.. مَعقلاً للمحافظين، عَطَّلَ طلب العلم أكثر مما شجعه. وهكذا استحالت مصر.. صورة مجسمة للجهل والفقر والخرافة والمرض". المرجع السابق، ص 148.

(16) وكتب " وتُجمع شهادة شهود العيان الفرنسيين على أن زوار المجمع المسلمين لم يقع من نفوسهم ما رأوه أى موقع. ولكن رواية الجبرتى تُكذبهم.. لقد تأثر الشيوخ ما فى ذلك ريب، وقد أعجبوا.. بهذا الانقطاع للعلم، أكثر من إعجابهم بعرض الألاعيب والحيل الرخيصة، ولكنهم أبوا الخضوع لسيطرة الغريب. وبعد قرن ونصف من الزمان تعلمت آسيا وإفريقيا كل هذه الحيل.. فأى الرجلين أكثر سذاجة؟ أهو الشرقى الذى لم يسمع من قبل بالكهرباء، أم الأوربى الذى ظن أن اكتشاف الكهرباء يعطيه حقاً أبدياً فى السيادة على غيره؟. هذا مع التسليم بأن مصر التى حققت قبل أربعين قرناً معجزات فى الصناعة مازالت تثير الدهشة قد هبطت فى ذلك الحين إلى مستوى بدائى لا يكاد يُصدق". المرجع السابق، ص184، 185.

(17) المرجع السابق، ص 13، 14، 400، 401.

(18) لقد كتب " إن موقفاً من المواقف لا يصبح تاريخياً إلا لأحد أمرين : إما لأن المشاركين فيه على

وعى بأنهم يصنعون التاريخ، وإما بفضل نتائج أعمالهم. ولو كان النواب الذين حضروا افتتاح الديوان العام الذى عقد بالقاهرة فى 4 أكتوبر 1798 يعلمون أنهم يؤلفون أول مجلس نيابى فى الشرق الأوسط، أو لو كانت اجتماعاتهم خلال الأسبوعين التاليين تمخضت عن أى نتائج، لكان هذا الموقف تاريخياً. ولكن الذى حدث هو أن هؤلاء النواب غلبتهم الحيرة والارتباك، وكان همهم الوحيد إرضاء الفرنسيين دون إحداث أى تغيير فى النظام القائم ". وعلى كلٍ لم يتشجع أى من المشايخ لتأييد ذلك. المرجع السابق، ص 153، 192، 193.

(19) المرجع السابق، ص 82، 153، 154، 162، 163، 176، 178، 179.

(20) المرجع السابق، ص 28.

(21) عنده أنه إذا كان المصريون مُحقون فى التشكك فى إخلاص إسلام بونابرت.. إلا أنهم غير محقين فى الخوف على دينهم " فالذى كان بونابرت يريد القضاء عليه هو جمود الناس وتشبثهم بالتقاليد العتيقة.. وكراهتهم الخروج من العصور الوسطى، وعدم رغبتهم فى مساعدته على النهوض بهم.. وقد أمضى العالم الإسلامى قرنًا ونصف قرن .. ليُدرك أن المسلمين يستطيعون الاحتفاظ بدينهم وتقاليدهم سليمة لا تمس، ومع ذلك يسيرون مع عجلة الزمن ". المرجع السابق، ص 152، 153.

(22) فى تقديمه للطبعة العربية كتب " صدر هذا الكتاب بالانجليزية عام 1979وقُرأ على نطاق واسع. وما أزعجنى أن من كتبوا عن مصر بعد هذا التاريخ لم يتخلوا عن عام 1798.. كبداية للتحديث فى مصر، بل ولم يفكروا فى مجرد طرح الافتراض القائل بأن مصر كانت تتمتع بثقافة حية وكان من الممكن أن تنُجز عملية التحديث بنفسها ". كما اشتكى أيضاً من ندرة الاستشهاد بكتابه من قِبل حركة الاستشراق، وهو مادفعه لطرح سؤال فى غاية الشجاعة والأهمية: " هل هناك استشراق جديد كما أن هناك امبريالية جديدة؟ أعتقد ذلك ". وفى إطار حديثه عن بدايته الإطار الزمنى لدراسته كتب " قصدت بهذا الإطار الزمنى بالتحديد تحدياً لما يمكن أن نطلق عليه (نظرة تاريخية أوربية المحور) وهى نظرة تنطوى على مفهوم أن العالم الثالث كان فى سُباتٍ عميق حتى (مجىء الغرب). وكان هدفى أن أبرهن على أن مجىء بونابرت..لم يكن ذا أهمية كبيرة فى التاريخ المصرى كما تزعم حركة التاريخ الأوربية منذ وقت طويل.. ثم نبدأ بعد ذلك مناقشة الزعم بأن بونابرت وعلماء الحملة غيروا إلى حد ما هذا الفكر. لقد ناقشت فى الكتاب ضمنياً بعض الفروض عن عزلة مصر وعن الكيفية التى تتطور بها الأفكار فى مصر وهى مقولة مبتذلة عن انتشار الثقافة من المركز الأوربى، كما ناقشت بشكل خاص الاعتقاد بأن الجيش الفرنسى كان بدرجة ما أداة للتحول الثقافى. والخلاصة: أننى اكتشفت أن التركيز على عام 1798 يبدو جزءاً من التاريخ الكلونيالى الذى لم يمت بعد".بيتر جران: الجذور الإسلامية للرأسمالية.. مصر 1760 - 1840، ترجمة : محروس سليمان، مراجعة : د. رؤف عباس، دار الفكر، القاهرة، 1993، ص 5، 6.

(23) بيتر جران : الجذور الإسلامية، ص22، 28- 31، 66، 80،79، 154.

(24) بيتر جران: الجذور الإسلامية، ص 23، 154.

(25) وهو يرفض مقولة أن ازدهار الغرب يعنى اضمحلال الشرق، وأن مسار التاريخ الأوربى إلى

الازدهار، فى حين أن التاريخ العربى والإسلامى فى طريقه إلى الانحدار. وعنده أن " نظرية ازدهار وانحلال الحضارات هذه لم تثمر نموذجاً ملائماً لدراسة القرون الطويلة التى تفصل بين العصر الذهبى عند العرب فى القرن العاشر الميلادى والقرن التاسع عشر، وهو قرن التحديث ". بيتر جران : الجذور الإسلامية، ص 19، 20.

(26) ضرب مثالاً على ذلك بالطباعة التى كان استخدامها سيؤدى إلى " بطالة قطاعات ضخمة مختلفة من قوة العمل وهى قوة منظمة جيداً، وبالتالى كان على الدولة أولاً أن تعد القوة اللازمة لسحق الناسخين قبل إدخال الطباعة ". وعنده أن ما حدث فى مصر حدث ما يشبهه فى دول أوربية. المرجع السابق، ص10، 11.

(27) راجع للمزيد : بيتر جران : الجذور الإسلامية، ص 12، 21، 81، 82، 103، 104، 117.

(28) المرجع السابق، ص 147، 148، 154.

(29) المرجع السابق، ص 10، 27، 58.

(30) مع تقديرنا لإثارة جران لمفهوم الصحوة / البعث.. إلا أننا لا نستطيع مسايرته فى أنها تعود فقط للقرن الثامن عشر وأن مصر قبلها كانت تعيش فى العصور الوسطى. وعندنا أن الكثير مما أثاره عن القرن 18 يمكن العثور له على نماذج شبيهة فى القرن 17. ومن ثم فالأمر بحاجة للمزيد، حتى وإن لم يرتبط بالبحث فقط عن جذور الرأسمالية. وتعتبر دراسة نللى حنا " ثقافة الطبقة الوسطى " خطوة فى الاتجاه الصحيح.

(31) كتب جران " إننى لمدين فى توجهى إلى هذه الدراسة لسلسلة المقالات التى كتبتها الأستاذه عفاف لطفى.. فى الستينيات. لقد عاونتنى.. على إدراك التناقض حول المزاعم التى استمرت خلال قرون حول التدهور الكامل فى الأزهر والإبداع السريع بعد مجىء الغرب، وعن جيل من الطلبة الذين تعلموا الفرنسية بسهولة وترجموا الأدب ومراجع الطب، كما ساهموا بإبداع فى وضع أساس اقتصادى جديد ". المرجع السابق، ص21.

(32) أكد ذلك فى قوله: " إن النظرة التاريخية المتحررة من الاتجاه الاستعمارى لدى علماء الغرب، ومنهم أنا شخصياً، بطيئة فى نموها.. ". المرجع السابق، ص 327.

(33) نشير هنا إلى دراسة بيتر جران : ما بعد المركزية الأوربية، ت : عاطف أحمد، إبراهيم فتحى، محمود ماجد، م : رؤف عباس، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومى للترجمة، العدد 41، 1998.

(34) اعتبر كونو أن جران أول مؤرخ اجتماعى يبتعد عن التقسيم الزمنى السائد لتاريخ مصر الحديث، وقد سار على الدرب نفسه فى دراسة الاقتصاد. وفى تصديره للطبعة العربية أشار للجدل الذى كان مُثاراً حول ذكرى الحملة وهل يحتفل بها أم أنها كانت احتلالاً؟ وكان من الناقدين لفكرة أن مصر الحديثة بدأت مع بونابرت. كينيث كونو: فلاحو الباشا.. الأرض والمجتمع والاقتصاد فى الوجه البحرى1740– 1858، ت :سحر توفيق، م : عاصم الدسوقى، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومى للترجمة، عدد 136، ص 12، 275.

(35) أشار إلى أن أرض الصعيد كانت تقسم سنوياً طبقاً لحق الحراثة الذى تحوزه كل عشيرة. أما فى معظم مصر وطوال قرون عديدة قبل القرن 19 فكانت الأرض فى حيازة الأفراد تورث حيازتها

وتنقل، وكان نقل حقوق الانتفاع إلى أبناء الحائزين (وبناتهم أحياناً) تصرفاً تقليدياً بل وحقاً مفروضاً فى القانون.. وعند فقهاء المسلمين. وكان نقل حق الانتفاع بطرق مساوية لبيعها أو تأجيرها أو رهنها يتم أيضاً بشكل تقليدى.. وهو ما يفسر وجود مجتمع ريفى مقسم طبقياً على مستوى عالٍ قبل 1800. المرجع السابق، ص16، 26، 249-251.

(36) كينيث كونو : فلاحو الباشا، ص 57، 58.

(37) كينيث كونو : فلاحو الباشا، ص 74، 249.

(38) أندريه ريمون:الحرفيون والتجار فى القاهرة فى القرن الثامن عشر،ج2، ت: ناصر إبراهيم، باتسى جمال الدين، م:رؤوف عباس، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومى للترجمة، عدد 819، القاهرة، 2005،ص1074.

(39) أندريه ريمون : الحرفيون والتجار، ج1، المجلس الأعلى للثقافة، العدد 818،، 2005، ص19.

(40) المرجع السابق، ج1، ص 25، 27، 361، 362.

(41) شكك تماماً فى تقدير " وصف مصر " لعدد الوكالات بالقاهرة. وتكرر ذلك عند حديثه عن عدد طوائف الحرف الذى أوردها الكتاب. المرجع السابق، ج1، ص 21، 93، 433. ج2، 738-741.

(42) فى هذا الإطار قارن بين " دخول العثمانيين " وطول وجودهم و" الاحتلال الفرنسى" وقصر مدته، وبين كثرة ماكتبه الفرنسيون قبل الحملة والتحامل الذى تحمله كتاباتهم أحياناً وبين مصر التى تحولت إلى " أطلال " قبل وصولهم، وبين بيان بونابرت الذى اعتبره " قطعة جميلة من قطع البلاغة السياسية " لفهمه أوضاع مصر وما كتبه الجبرتى الذى لم يكن " مُمثلاً لمجمل المجتمع المصرى فى تنوعه " بل يمكن " الاعتراف بأنه يجسد مشروع البورجوازية المثقفة التى توجه إليها بونابرت.. وطمح إلى إغرائها لكى تخدمه فى مشروعه بالسيطرة على البلد ". وفى هذا الإطار كتب ".. فلاشىء فى تعليق الشيخ يوصد الباب أمام تعاون معين مادام الشك مستمراً حول رأى الباب العالى فى مشروع بونابرت..وفيما يتعلق بمشكلة الحداثة، بإمكانية العمل على تطوير البلد فى اتجاه نظام مختلف، لم يعبر الشيخ عن عداوة مبدئية بقدر ما عبر عن الشك النابع من جهله العميق بالعالم الذى لايعرف منه سوى الدولة العثمانية ". أندريه ريمون : المصريون والفرنسيون فى القاهرة 1798 - 1801، ت: بشير السباعى، عين للدراسات، القاهرة، ط1، 2001، ص3، 9، 22، 80، 83.

(43) أندريه ريمون: المصريون والفرنسيون، ص3 - 7.

(44) وقد اعتبر مشكلة الدين " الأكثر هولاً بكثير " حيث اعتقد المشايخ أن الإسلام " قدم إليهم إجابة عن جميع المشكلات المطروحة ". المرجع السابق، ص270 - 272، 331.

(45) أشار إلى أنه " بعد فترة الفزع والخوف التى ميزت وصول الفرنسيين، نشأت علاقات أكثر انفراجاً.. واتجه المحتلون وضحايا الاحتلال إلى تعرف كل طرف على الآخر ". ورغم حديثه عن أن عادات الفرنسيين كانت تثير " الاستغراب وغالباً الصدمة، وتبدو.. غير لائقة وعبثية " إلا أنه انتهى إلى أنه " بوجه عام بدا السكان غير مبالين ولطفاء غالباً، وإن كان من الواضح أن الصعوبة الوحيدة هى صعوبة التواصل معهم " (!). ومع ذلك أشار فى مواضع أخرى إلى العداء بين

الطرفين وإن أرجعه إلى " الحرص على صون وضعية الإسلام، العداوة للمحتلين المسيحيين، الولاء للعثمانيين ". كما أكد أكثر من مرة على صعوبة التواصل " بين المديرين الفرنسيين والمدنيين المصريين " بسبب اللغة. المرجع السابق، ص95، 96، 272 – 274، 307–310.

(46) واعتبرها من المشاكل التى واجهت التنوير الفرنسى " كانت مشكلة النساء أكثر إيذاءً بكثير للعلاقات بين المحتلين وضحايا الاحتلال ". المرجع السابق، ص 274 - 278.

(47) وهنا استمر فى أسلوبه الذى يحتمل عدة أوجه، فكتب عن مقدمات ثورة القاهرة الأولى " أياً كانت رغبة المحتلين فى إقامة علاقات طيبة مع السكان.. فإن الوجود العسكرى الفرنسى استتبع بالضرورة أعمال عنف بررتها ضرورة الحفاظ على النظام، ومطالبات متنوعة فرضها الحرص على وجود تأمين الوجود المادى للجيش ". كما كتب " ولامراء فى أن إلقاء القبض.. على شيخ الجعيدية وبعض الآخرين الذين جرى إعدامهم.. أثار ارتياحاً بأكثر مما أثار انزعاجاً[!]. أما الصدمة الكبرى الأولى فتمثلت فى إعدام السيد محمد كريم، رجل مراد الذى يتمتع بثقته فى الإسكندرية.. ويكرس الجبرتى سرداً مطولاً لهذه القضية فى المدة دون أن يبدى.. انزعاجاً عظيماً جداً "[!]. ويستمر فى الاتجاه نفسه بالقول " والشيء المهم بالدرجة نفسها من حيث نتائجه هو التعديات التى استهدف بها الاحتلال مصالح السكان. فما كادت الحملة تبدأ حتى أرهقت المصريين بسلسلة من المطالبات التى مع أنها لم تتميز بالطابع الوحشى والتعسفى لمطالبات المماليك ـ كان لابد أن تؤدى إلى سخط المصريين. والحال أن وجود وحاجات القوات الفرنسية بررت مصادرات شكلت إزعاجاً للسكان محدودى الموارد ". وعنده أن الفرمانات التى أصدرتها الدولة للولايات والداعية لخوض الجهاد أدت إلى " أن رأت النور التجليات الأولى لولاء (عثمانى) ومن ثم لعداوة سياسية للفرنسيين "[!]. المرجع السابق، ص104- 108.

(48) وكتب أنها خلقت بين المحتلين وضحايا الاحتلال هوة من المستحيل ردمها " ومن ذلك عبء الضرائب العادية أو الاستثنائية. فمع أن الإدارة الفرنسية كانت " أكثر كفاءة " إلا أنها كانت "أكثر فداحة" من الإدارة السابقة، بل ووصل الأمر إلى حد اللجوء إلى " سخرة حقيقية ". المرجع السابق، ص 284 – 289.

(49) وعنده أن المماليك والعثمانيين كانوا من العقبات التى حالت دون نجاح " المهمة التنويرية " وأن "أسس السياسة الفرنسية تعرضت للخطر عندما أصبحت معارضة الباب العالى واضحة، ثم انهارت هذه الأسس انهياراً حاسماً عندما انخرط الجيش الفرنسى فى حملة الشام.. بل إن الانهيار امتد ليشمل السياسة (المعادية للمماليك) التى تداعت إلى درجة التوصل لاتفاق مع مراد.. وهكذا فإن ثلاثة أعوام.. فى مصر أدت إلى انقلاب كامل لعين المبادئ التى كان بونابرت قد أسس عليها تدخل الجيش الفرنسى". المرجع السابق، ص260، 270.

(50) فى إطار الموقف الوسطى نجده، وتحت عنوان: " سيئات الحداثة " وقد كتب " كان المحتلون يشعرون بالثقة فى أن الحضارة الأحدث التى جلبوها معهم ستلقى القبول من جانب السكان.. الذين رأوا أنهم سيقابلون هذا التطور بالتأييد. وعلى محك التجربة رصدوا أن الأمور أكثر تعقيداً.. فمن جهة لم يكن المصريون غافلين عن دوافع الفرنسيين العميقة. ومن جهة أخرى استاؤا من المساوئ المترتبة على البدع التى فرضت عليهم باسم الحداثة. ولم يكن هناك مفر من أن

ينفروا لأنهم كانوا على وعى بأن هويتهم ومصالحهم قد أصبحت مهددة. ومن هنا وقعت سلسلة من الحوادث المحدودة التى تكشف عن التدهور التدريجى للعلاقات بين المحتلين وضحايا الاحتلال " وضرب أمثلة، منها نزع بوابات الحارات. المرجع السابق، ص 101، 102.

(51) المرجع السابق، ص93 - 95، 138، 139، 329- 332.

(52) المرجع السابق، ص 218، 219، 223- 225، 289، 290.

(53) المرجع السابق، ص332. وأشار إلى أن العمل لم يُنشر إلا فى عام 1879.

(54) وهكذا كتب أن التدابير " الحداثية " من وقائية ضد الأمراض وتوسيع للشوارع وهدم لأبواب الحارات وإضاءة الشوارع.. انقلبت إلى " قائمة بالإزعاجات التى استثارها الاحتلال فى الحياة اليومية للقاهريين.. وهو ما يعنى أن ثمن التقدم كان باهظاً ". وأضاف فى موضع آخر " والحال أن حقائق الاحتلال القاسية سرعان ما ستقود الفرنسيين إلى تخفيف حماستهم وإلى إضفاء الاعتدال على طموحاتهم. ولابد من مراعاة الإحباط العظيم الذى استشعره الفرنسيون عندما اتصلوا بمصر أفقرتها عشرون سنة من الكوارث والطغيان، وكانت لا تتماشى مع توقعاتهم ". المرجع السابق، ص 259، 288، 289.

(55) ومما عقب به على ذلك " ومن المحتمل أن المصريين لم يتأثروا إلى الحد الذى توقعه الفرنسيون ببراعة تعتبر إلى حد ما (استعمارية). ولا مراء فى أنه كان فى ردود الفعل المتحفظة هذه شىء من الجهل والسذاجة. إلا أنه بالنسبة للمشايخ والمصريين، فإن البقاء فى إطار نظامهم الدينى والفكرى والثقافى كان أيضاً وسيلة للدفاع عن النفس، ولحمايتهم هويتهم ولرفض السماح للأجانب المسيحيين بالسيطرة عليهم..وأخيراً ففى كثير من الحالات اشتبه المصريون فى أن هذه المبتكرات وسيلة لاستعبادهم أو للاعتداء على دينهم أو تقاليدهم.. ومن ثم فإن المحتلين كانوا سذجاً إلى حد ما عندما غضبوا من لا مبالاة المصريين ". المرجع السابق، ص 263، 267.

(56) المرجع السابق، ص 332، 333.

- من الأمور اللافتة تناوله لثورة القاهرة الأولى كـ"تمرد" مُتبعاً فى ذلك الكورييه دوليجيبت!. وبينما أبرز البعد الدينى له.. اهتم بما كتبه الجبرتى فى "المدة " عن أن "الفتنة " كانت من جراء عمل "أصحاب العقول القاصرة "و" الغوغاء". أما ضرب حى الأزهر بالمدفعية فعنده " كان من المنطقى أن يفضل العسكريون قصف بؤر التمرد عن بُعد.. بدلاً من المغامرة بمعارك تلاحمية غير مؤكدة النتيجة فى ساحة صعبة " خاصة وأن المشايخ لم ينفذوا طلب بونابرت بوقف "التمرد". وإذ اعترف بما اقترفه الفرنسيون فى الأزهر، إلا أنه كتب " وقد أفلت الجامع الكبير بالكاد من الدمار الكامل ". وفى تعليقه على المجازر فى حق " المتمردين" كتب "وفى نظر عدد من الفرنسيين المشاركين فى الحملة فإن هذا القمع الشديد الذى أعقب أحداثاً دامية كان بالغ الاعتدال ". وبالمثل اعتبر ثورة القاهرة الثانية " تمرد القاهرة الثانى " وأنه أحد نتائج اقتراب العثمانيين الذى أدت تداعياته إلى أن بعض السكان" أرادوا أن يثبتوا للصدر أنهم يتطلعون إلى لحظة الخلاص من الفرنسيين بتوجيه الإهانات إليهم " بل واعتبره "وإلى حد معين يندرج فى سلسلة التظاهرات الشعبية التى مست المدينة بين 1775 و1805"!. وبينما أبرز حجم الدمار الذى حل بكثير من

أحياء القاهرة نتيجة " التمرد" وما أعقبه من " نهب مريع " قام به الجنود والذل والضيم الذى لحق بالشيخ السادات " المعاملة الهمجية والمهينة ".. إلا أنه مع ذلك كتب" ولاشك أن محصلة عامة كارثية بهذا الشكل قد بررت للجبرتى توقعاته المتشائمة التى لم يكف عن طرحها بشأن حركة تذكى أوارها الجماهير الشعبية التى كان يستهجن تجاوزاتها، ويدعمها العثمانيون الذين انتقد عجزهم وتعدياتهم، كما يدعمها المماليك الذين كانت إدارتهم الكارثية.. قد جرت المصائب على البلد" وهذا يعنى ضرورة توجيه النقد لأسباب قيام " التمرد" وليس لوسائل قمعه، وأن تلك القوى هى المسئولة عما حل بالقاهرة والمصريين !!. أما اغتيال سليمان الحلبى لكليبر.. من حيث أسلوب ومكان التحضير.." إنما تضع هذا الحدث خارج السياق المصرى. وطابع المحاولة نفسه، من حيث كونها محاولة فردية، لا يبدو أيضاً أنه يندرج فى تراث المقاومة المصرية ضد المحتل " !!. المرجع السابق، ص113– 117، 120، 125، 127، 167، 186- 189، 192، 195. مع العلم بأنه وصف الثورتين فى"طوائف حرف" باعتبارهما من" الثورات الكبيرة "!!.

(57) المرجع السابق، ص 257، 258، 333، 334.

(58) المرجع السابق، ص 268، 310، 311.

- تحت عنوان: " التعاون والمقاومة " طرح بذكاء مشكلة تعاون " النخبة " من العلماء وكبار التجار".. فى إطار سؤال طرحه على ألسنتهم (كيف لانتعاون؟). ومن هذا المنطلق ناقش قضايا منها شروط التعاون ودور الدواوين فى الوساطة المفيدة بين السكان والسلطة الفرنسية وإسهامها بذلك فى تخفيف قسوة الاحتلال. وعلى كل فإنه لا يخفى إغراء الفرنسيين للمشايخ بالالتزامات وغيرها لكسب ثقتهم، لكنه لا يأبه بمقولة إن المصريين " كانوا مكرهين على خدمة الفرنسيين". لقد أظهر كل مشايخ " المرتبة الأولى" باعتبارهم متعاونين فى الأساس وإن اختلفت درجات تعاونهم وظهرت لدى بعضهم أحياناً بعض ملامح المقاومة. أما " العلماء من المرتبة الثانية فقط فنجد من بينهم مقاومين "وهؤلاء "لم تكن لهم علاقات بالفرنسيين ". وعنده أنه لايمكن اختزال العلاقات بين المحتلين وسكان القاهرة إلى لحظات الأزمة التى جرى التعبير فيها عن العداوة والعنف ". وفى المقابل" لامراء فى أنه لا يوجد سوى وهم فى الانطباع الذى تقدمه روايات العسكريين الفرنسيين التى تذهب إلى قيام علاقات منفرجة بما يكفى خلال الأسابيع الأولى بين المحتلين والقاهريين ". ومن ثم سيكون من المبالغة تصوير العلاقات بين عامة الشعب والفرنسيين على أنها كانت صدامية بشكل موحد ". المرجع السابق، ص290- 306.

(59) المرجع السابق، ص 261، 262.

(60) وضرب أمثلة على ذلك بالتدابير المتعلقة بالصحة العامة " بل إنهم مضوا إلى حد اقتراح تحسينات على مشروع خاص بالحالة المدنية "، ويقصد بذلك تسجيل المواليد والوفيات، حيث كتب الديوان " هذا الترتيب سوف يوافق عليه جميع العقلاء، ولا يمكن لديننا الحنيف أن يخالف فى شىء ترتيباً حكيماً كهذا ". هذا مع أن ريمون لاحظ مبالغة الكوريه فى تصوير الأمر، وأن مينو " أوحى به بقوة" وأن الجبرتى أشار إلى أن الديوان اعتبر الإجراء "معقولاً ومتماشياً تماماً مع وصايا الإسلام". المرجع السابق، ص262، 263.

(61) المرجع السابق، ص 254، 255.
(62) المرجع السابق، ص260، 278، 282، 283.
(63) المرجع السابق، ص170- 320،175- 329.
(64) ظهر هذا الجيل فى فرنسا منذ خمسينات القرن العشرين، وأعادوا تقييم الثورة الفرنسية بشكل متوازن وغير مغرق فى التفرد، ومن ثم أعادوا تقييم الحملة مستفيدين من المدرسة" الأنجلو – سكسونية ". د.ليلى عنان : الحملة الفرنسية : تنوير أم تزوير ؟، ص10، 46، 180 - 184.
(65) وهكذا كتب أن " الكتابة التاريخية عن الحملة.. تشكو من كونها نابوليونية بشكل بالغ الحدة. إذ يجرى النظر إليها غالباً بوصفها مرحلة فى مسيرة فاتح ولا يجرى النظر إلى الجوانب الشرقية للمسألة.. لكن المشروع لا يمكن اختزاله فى مناورة سياسية تهدف إلى التخلص من جنرال جد مرموق ورائع.. إنه يتماشى مع مخطط عميق، ولعل الصدفة هى اضطلاع بونابرت به ". ومن ثم فقبل نهاية القرن 18 تم إعداد " الأيديولوجيات الجديدة الضرورية لاستعمار جديد بتكييفه وبإضفائه لطابع عالمى على نظريات التنوير فى شكلها الأخير: الأيديولوجية ". وهكذا فالحملة لم تكن صدفة تاريخية ترجع فقط إلى أسباب سياسية واستراتيجية، وتهدف إلى مجرد استغلال اقتصادى، بل إلى تعميم التغريب فى العالم. هنرى لورنس : الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر.. الاستشراق المتأسلم فى فرنسا (1698- 1798)، ت: بشير السباعى، دار شرقيات، القاهرة، ط1، 1999، ص12، 13، 186. وقد نشر الكتاب للمرة الأولى بالفرنسية عام 1987.
(66) لقد تناول تطور نظرة الغرب تجاه الرسول (ﷺ) والخلفاء، حيث جرى تلخيص التطور السياسى فى جمل قليلة وصولاً إلى الدولة العثمانية التى اعتُبر حكمها غير شرعى لقيامه على" القوة والقهر". وأمام ضعفها ظهر الإسلام باعتباره " العقبة التى تقف فى وجه التوسع الأوروبى ". وعلى كل فقد طرح المستشرقون شرعية القوة لمواجهة الموقف. وفى هذا الإطار نمت بين أبناء عصر التنوير الفرنسيين نظرة التشكيك فى الحضارة العربية، كما طرحت فكرة " الاستبداد الشرقى" خاصة فى الدولة العثمانية التى اعتبروها " نظام اضطهاد بالكامل" وأن العثمانيين نوع من " الوحوش الذى لا يلغى الحرية المدنية وحدها وإنما يلغى أيضاً الحرية الاقتصادية التى لا تنفصل عنها.. ومع تورجو يرتبط مجال الاقتصاد بمجال السياسة " حيث طالب بضرورة إلغاء هذا الاستبداد الشرقى من الخارج، طالما أنه لا يمكن تغييره من الداخل " أى استخدام القوة الذى نسميه غزواً أو تدخلاً". وفى هذا الاتجاه أيد فولنى غزو مصر حتى يتم القضاء على الاستبداد فيها. على أن الإسلام بقى هو العقبة فى وجه الطموح الاستعمارى، وطرحت كتابات المستشرقين قضية كيفية التعامل معه من خلال العلماء. وكتب ماجالون " إذا كان يجب السعى فى البداية إلى اجتذاب العلماء بسبب هيمنتهم على الشعب، ففيما بعد (عندما يجرى تنوير أذهان الشعب) سوف ينكشف العلماء، وعندئذ لن تكون لهم مكانة غير المكانة التى يستحقونها ". وفى هذا الإطار جاء الغزو لمصر لإصلاح أحوالها والوصول بها إلى " الازدهار القديم لفائدة كل من الطرفين " من خلال "إحداث تغيير فى النظام السياسى" تقوم به " الإدارة الأوربية الجيدة "و" بعيداً عن الحضارة الإسلامية " التى تجد نفسها فى حالة" عقم تام ". ولقد كانت إشارات سافارى وغيره من الرحالة

والقناصل تشكل دعوة مباشرة إلى هذا التدخل، حيث اقتنع بونابرت " بإمكانية وفرصة هذا المشروع. والحال أن الصورة المحزنة التى تبديها مصر أو التى يجرى تقديمها عن مصر لا يمكن فهمها إلا ضمن منظور كهذا، منظور إنقاذ شعب من الاستبداد ". وفى ظل تلك الكتابات "يجرى الانتقال من وصف سلطة استبدادية موجودة فى الواقع إلى الأسس الأيديولوجية للتوسع الأوروبى". ولما كان العنصر الأخير والمهم هو معرفة ردود فعل السكان، فقد وجدت أطروحتان تفترضان خضوعهم وترحيبهم بالفرنسيين؛ إما بسبب الخمول أو العداء للنظام المملوكى، خاصة وقد ساد الاعتقاد بإمكانية " تصوير الفعل الأوربى فى صورة تحرير فى عالم لا توجد فيه تضامنات عمودية تضفى شرعية على سلطة الجماعات السائدة ". وعلى كل توافق ما سبق كله مع فقدان فرنسا لمعظم مستعمراتها، وقيام الإنجليز بإعادة بناء إمبراطوريتهم الاستعمارية.. والأضرار الناجمة عن استقلال " الولايات المتحدة الأمريكية " عندئذ لا يوجد غير حل تعويضى واحد "احتلال مصر". المرجع السابق، ص29، 33- 40، 43، 49- 55، 57، 63 -84، 94، 101، 105، 128، 176.

(67) هنرى لورنس : كليبر فى مصر.. المواجهة الدرامية مع بونابرت، ت : بشير السباعى، دار شرقيات، القاهرة، ط1، 1999، ص6. وقد صدرت الطبعة الفرنسية الأولى عام 1988.

(68) جاء بيوميات كليبر فى مصر " إن الصفحة البيضاء التى مجدتها الثورة أصبحت بمرور الوقت صفحة فاشلة لا بداية جديدة.. لقد تفككت كل العُرى، وكل السلطات غير لائقة.. وفى وضع كهذا، إلام تؤول الدولة؟ هناك فرضان ممكنان. الأول هو الانحلال الناشئ عن ضعف السلطة والذى يؤدى إلى الغزو الأجنبى من جانب الجيران.. وعندئذ تنتقل الشعوب إلى حالة أسوأ من الحالة التى كانت عليها عند الخروج من البربرية. فقوانين الفاتح تناضل ضد قوانين الشعب المفتوح. وعادات الأول ضد عادات الآخر، وأخلاقه ضد أخلاقه وديانته ضد ديانته وتختلط لغته بلهجة أجنبية. وتلك فوضى يصعب التنبؤ بما سوف تنتهى إليه.. ولاتنجلى إلا بعد مرور عدة قرون، وتبقى منها آثار لا تتمكن أسعد الأحداث من محوها أبداً بالكامل ". وفى تعقيبه على ذلك كتب لورنس " ولايبدو أن هذه الفقرة تخص فرنسا الثورية بشكل مباشر. فهى تخص بالأحرى أوربا فى بداية العصر الوسيط، وربما تخص أيرلندا، إلا أنها ربما تخص أيضاً مصر الخاضعة لسيطرة الفرنسيين ". هنرى لورنس : كليبر فى مصر، ص 67، 126، 127، 143- 145.

(69) هنرى لورنس: الحملة الفرنسية فى مصر، ت: بشير السباعى، سينا للنشر، القاهرة، ط1، 1995، ص8.

(70) المرجع السابق، ص 8، 9، 120، 135، 154.

(71) انظر فى ذلك كتابنا : الخطاب السياسى الصوفى فى مصر فى القرن السادس عشر، القاهرة، دار الكتب والوثائق، سلسلة مصر النهضة، عدد 55، ط1، 2004، ص 145- 147.

(72) " بما أن بونابرت لا يمكنه بعد اللعب بورقة الإسلام السياسى.. فإنه يتجه عندئذ إلى جانب آخر من جوانب البرنامج.. تحرير شعوب الشرق. وسوف يسعى إلى وضع النزعة العربية فى مواجهة الإسلام " وهو ما سيتضح من طرحه بعض الأسئلة على المشايخ (لماذا تخضع الأمة العربية

للأتراك؟. كيف تهيمن على مصر الخصيبة وشبه الجزيرة العربية المقدسة شعوب جاءت من القوقاز؟. وإذا ما هبط محمد [ﷺ] اليوم من السماء على الأرض فإلى أين سيذهب؟ "). وعند لورنس أن الأمر أصبح "حوار طرشان" لأن أى فريق لم يصدق بما قاله الآخر. هنرى لورنس : الحملة الفرنسية فى مصر، ص 76، 78، 116، 334 – 336.

(73) المرجع السابق، ص 334 – 336، 627، 628.

(74) المرجع السابق، ص 100.

(75) المرجع السابق، ص 8، 9 198، 296 – 299، 503، 550، 551. ولقد تكرر عنده الحديث عن أن " قصور الإمكانات المالية هو الذى حد بشكل ملحوظ من مشاريع الفرنسيين التمدينية " لكنه تحدث أيضاً عن " الحاجز اللغوى والثقافى والتخصص الضيق للموظفين المحليين الذين يفتقرون إلى النظرة الكلية ".

(76) " فى أوائل يوليو 1800 يدفع نقص أقمشة الثياب مسئولى الجيش إلى اقتراح إنشاء مصنع فى مصر. ويرى مينو فى ذلك على الفور فرصة لتحويله إلى مركز تعليم لتدريب المصريين على الطرق الحديثة. لكن المديرين الذين يخشون من منافسة فى المستقبل للصناعة الفرنسية، يرفضون ذلك. ويؤكد كونتيه على الملأ أنه لن يعلم المصريين شيئاً وأنه لا يقبل الاشتراك فى المشروع إلا بشرط السماح للفرنسيين وحدهم بدخول الورش وأن يتم، فى حالة الجلاء عن مصر، إخراج المعدات أو تدميرها. ويضطر مينو إلى التراجع أمام احتجاج الحمائيين ". المرجع السابق، ص 533، 534.

(77) المرجع السابق، ص 297 .

(78) لقد كتب " كما يشهد العلم استخدامات سياسية له. ويريد بونابارت التأثير على المصريين بإطلاق منطاد فى ساحة الأزبكية " على أنه أشار أيضاً إلى حقيقة أن " هذه المعجزة " لم تدهش لا الجبرتى ولا القاهريين. المرجع السابق، ص 298، 299.

(79) المرجع السابق، ص 210، 437، 438، 625. ويقصد بالإيجيبتو مونيا : الولع بمصر.

(80) المرجع السابق، ص 220، 300، 528، 548، 549، 625 - 627.

(81) المرجع السابق، ص 295، 328، 329، 627، 628.

(82) د.ليلى عنان: الحملة الفرنسية فى محكمة التاريخ، ص217، 220.

(83) Muhammad Sabrī Al-Dālī ; Ottoman Historical Research in Egypt Since 1936 , Asian Research Trends ,The Centre for East Asian Cultural Studies for Unesco , Tokyo, No.11 ,2001, pp.15 -19.

(84) لا يمكن تجاهل بعض الكتابات فى هذا المجال ومنها: أحمد يوسف: بونابرت فى الشرق الإسلامى(القاهر والمقهور)، ت: أمل الصبان، تقديم : أحمد زكريا الشلق، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومى للترجمة، عدد 734، 2005. وأورد مبالغات كثيرة فى وصف دور فرنسا، وهو ما يخرج عن مهمة بحثنا.

(85) محمد رفعت : تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثة 1798- 1849، المطبعة الرحمانية، ط3، 1927، ص 10–40، 85 –88. وصدرت الطبعة الأولى عام 1920. وكمثال لمدى التأثر بفرنسا كتب رفعت "لم يؤثر فى مركز فرنسا الأدبى بمصر بعد أن غادرتها الحملة إذ أصبح

للفرنسيين المركز الأول فى نظر المصريين وأصبحوا ممثلى المدنية الغربية والرقى، واعتبر المصريون أنفسهم مدينين لفرنسا وتلاميذ لأبنائها فلما حان الوقت واحتاجت مصر إلى رجال يصلحون شؤونها استعانت بضباط فرنسيين.. وبمهندسين.. وبأطباء.. وأساتذة ومشرعين.. وأصبحت الصلة التى تربط فرنسا بمصر أشبه بالصلة التى تربط الأستاذ بتلميذه "(!!).

(86) محمد رفعت : تاريخ مصر السياسى، ج1، ص 88 - 91.

(87) تتبعت د.عنان تطور أسطورة الدور الحضارى للحملة عبر الأدب والتاريخ الفرنسيين،واعتبرت أنها أصبحت كذلك " لأنها جزء من أسطورة أخرى هى أسطورة نابليون". وإذ كتب شاتوبريان فى القرن 19 "إن بونابرت كبير.. لأنه علم اسمه للشعوب المتوحشة كما علمه للشعوب المتحضرة" فإن ديكوت كتب عام 1967 " إن مرور نابليون على مصر كان (أول شعاع نور اخترق ظلمات الإسلام والبربرية)". د. ليلى عنان: الحملة فى محكمة التاريخ، ص7-9، 226 وغيرها. الحملة : تنوير أم تزوير؟، ص43، 115، 159، 173، 174.

(88) عبد الرحمن الرافعى: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر، ج1، دار المعارف، ط5، 1981، ص24، 25، 38، 43-50، 54، 71، 91. مع العلم أن الطبعة الأولى من الكتاب صدرت 1929.

(89) المرجع السابق، ج1، ص 94، 95، 99، 101، 103، 109، 151- 153. ج2، ص 286.

(90) الرافعى: تاريخ الحركة القومية، ج2، القاهرة، دار المعارف، ط4، 1981، ص119، 120، 124.

(91) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية، ج1، ص 140- 145.

(92) ".. ولاشك أن فكرة تأسيس هذا المجمع هى فكرة جليلة تدل على عبقرية نابليون ونبوغه فى التنظيم والإنشاء، كنبوغه فى الحروب وتدل أيضاً على قوة عزيمته وعلو همته.. وإذا نظرنا إلى هذا المجلس من الوجهة العلمية البحتة نجد أنه قد أفاد البلاد بآثاره وأعماله، وتعد مذكرات أعضائه نواة للأبحاث العلمية الخاصة بمصر فلا غرو أن يكون المجمع العلمى هو الأثر الوحيد الباقى من آثار الحملة.. ويكفى أن نمعن النظر فى أعمال أعضاء المجمع وأبحاثهم المنشورة فى كتاب تخطيط مصر لنقدر مبلغ ما قاموا به من الأعمال وما يستحقونه من الإعجاب والثناء ". الرافعى : تاريخ الحركة القومية، ج1، ص 145، 146.

(93) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية، ج1، ص 140، 430. ج2، ص 75. وقد ذكرت عنان أن المجمع العلمى كان استمراراً لـ"المعهد القومى" وأن مهمة علمائه كانت" تحضير وتنفيذ استعمار مصر" وأن الفرنسيين حاولوا استخدامه سياسياً بمحاولة إبهار شعب جاهل، والسماح بزيارة المشايخ له وتمثيل دور العلماء الخارقين فى إمكاناتهم. د. ليلى عنان: الحملة الفرنسية : تنوير أم تزوير؟، ص91، 92، 238.

(94) د. محمد صبرى (السوربونى) : تاريخ مصر من محمد على إلى العصر الحديث، القاهرة، مكتبة مدبولى، ط2، 1996، ص 21، 26 - 29، 31، 38.

(95) وقد ظهر ذلك فى محاضراته عن " المجتمع المصرى من الإقطاع للاشتراكية " وتطور فى" الجذور التاريخية لثورة 1952 " ثم " تطور المجتمع المصرى". د.عاصم الدسوقى: تأثير اليسار المصرى

على كتابة تاريخ مصر، وتفسيره، فى: اليسار فى الثقافة المصرية، القاهرة،دار العالم الثالث، ط1، 2005، ص171، 172.

(96) د. محمد أنيس : الجبرتى ومكانته فى مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى، فى ندوة : عبد الرحمن الجبرتى.. دراسات وبحوث، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1976، ص 97، 98.

(97) د.محمد أنيس: تطور المجتمع المصرى من الإقطاع إلى ثورة 23 يوليو، الأنجلو المصرية، 1985، ص 63.

(98) وعنده أنه كان هناك تدهوراً عاماً فى الحياة العلمية، ولاسيما فيما يسمى بالعلوم العقلية، من ناحية الكيف لا الكم، لأسباب منها أن الحكم العثمانى كان إقطاعياً وضعيفاً ولم يحدث تغييراً جذرياً فى المجتمع. ومنها العزلة خاصة مع تحول طريق التجارة. على أن التأثير العثمانى فى التدهور الفكرى كان ضعيفاً لطبيعته اللامركزية. ومن ثم فالاحتلال العثمانى ليس وحده المسئول عن ضعف الحياة الفكرية ولكن شيوع روح النقل والمحافظة وانكماش روح الابتكار. د. محمد أنيس : الجبرتى ومكانته، ص 102- 105.

(99) د. محمد أنيس : تطور المجتمع المصرى، ص63، 68 - 70.

(100) وعنده أن الحديث إجمالاً عن هيمنة البؤس والفقر والجهل والأمراض والأوبئة والطغيان والاستكانة على أوضاع مصر فى العصر العثمانى، لا يتطابق تماماً مع الواقع وقد يحمل معنى التجنى، وربما يعثر الباحث عن ثورة نشبت لدفع ظلم، وحركة قامت لقلب نظام حكم، وعزيمة وجدت للوصول إلى السلطة "وكلما زاد البحث وعثر على جديد، تغيرت النظرة الإجمالية والمبسطة، وثبت أن مصر لم تمت حتى فى عصر الموت". د. جلال يحيى : مصر الحديثة 1517- 1805، الإسكندرية، منشأة المعارف، 1969، ص 5 وما بعدها.

(101) د. جلال يحيى : مصر الحديثة، ج2، ص 520 - 547.

(102) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى : تطور الفكر السياسى فى مصر الحديثة، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1973، ص 9-14.

(103) د.رؤوف عباس: محاضرات فى تاريخ مصر الحديث، دار النهضة العربية،1980، ص 5–20، 29-32.

(104) د.رؤوف عباس: تطور المجتمع المصرى فى القرن التاسع عشر، دار الثقافة العربية، 1990، ص 32 -34.

(105) ظهر ذلك فى إشرافه على العديد من الرسائل عن مصر العثمانية وترجمته لبعض أعمال جران وحنا، ومراجعته للعديد من الأعمال. ناهيك عن احتضانه لسمنار التاريخ العثمانى. ولعل أبلغ دليل على التطور الذى طال موقفه من العصر العثمانى، ما كتبه بنفسه عام 2003. راجع تقديمه لترجمته كتاب:د. نللى حنا: ثقافة الطبقة الوسطى فى مصر العثمانية(ق 16- ق 18)الدار المصرية اللبنانية، ط1، 2003، ص14- 20.

(106) من تقديم د. رؤوف عباس لكتاب ناصر أحمد إبراهيم : الفرنسيون فى صعيد مصر.. المواجهة المالية (1798 – 1801)، سلسلة تاريخ المصريين، العدد 60، ط1، 2005، ص 12.

(107) د.عاصم الدسوقى: فى معالم تاريخ مصر الحديث، مؤسسة ابن خلدون، ط2، 2003، ص41–48.

(108) مماكتبه "لم يظهر الفرنسيين الذين اشتركوا فى الحملة فى صورة طيبة كاملة، ولكننا نضيف أن هؤلاء.. ما هم إلا بشر وما هم إلا استعماريون..فقد رأى الاستعمار منذ الفجر الأول له فى التاريخ، أنه لكى يتم التحضر البشرى لابد من إبادة المتخلفين وصنع الحضارة على دمائهم، وهكذا كانت فلسفة الاستعمار من أجل تحليل الاستغلال "!. ثم يعود للقول "ولم تكن كل الإجراءات التى قام بها الفرنسيون فى مصر صفحة غير مشرفة، بل كانت لهم لمسات رائعة فى كشف النقاب العلمى عن التاريخ المصرى". أما الحياة الفكرية عند قدوم الحملة فكانت "متواضعة للغاية". ثم يعود للقول "لم تكن الحياة العقلية فى القاهرة فى ذلك الوقت ضحلة بالحد الذى يحلو للبعض أن يصورها بها بعصر التخلف العلمى،ولكنها لم تكن كذلك عميقة، ولكنها كانت مرحلة من تاريخ مصر الفكرى "!!. وعلى كل فإنه كرر ما جاء بكتابات سابقة، وإن بشكل متناقض. د.وجيه أبو حمزه : تاريخ مصر الحديث المعاصر، ج1، القاهرة فى عصر الحملة الفرنسية، 1997، ص ب، 1، 9، 11، 30، 50، 77، 99، 373-377. والكتاب فى الأصل رسالة ماجستير أجيزت من آداب المنيا 1981.

(109) نبيل السيد الطوخى: صعيد مصر فى عهد الحملة الفرنسية 1798–1801، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 1997، ص216، 342– 345 وغيرها. والكتاب فى الأصل رسالته ماجستير نوقشت بآداب المنيا. هذا وإن لم يرصد كل حركات المقاومة ولا أشكالها، بل توقف عند منتصف 1799 تاركاً ما يقرب من عام من تاريخ المقاومة، لينتقل لتناول الإدارة الفرنسية للصعيد.. تماماً مثلما فعل الرافعى!.

(110) وأشار إلى أن الدعاية الفرنسية وقت الحملة جعلت مصر وكأنها " كانت على موعد مع لحظة تاريخية مماثلة لما جرى فى الواقع الفرنسى أواخر القرن 18.. بداية حقيقية لزوال عهد العبودية وانبثاق فجر الحرية ". للمزيد عن ذلك وعن وعيه منذ البداية بالاتجاهات المختلفة حول تفسير نتائج الحملة، انظر : د.ناصر أحمد إبراهيم: الفرنسيون، ص15–18، 29. نظام الالتزام فى فكر الحملة الفرنسية، بحث منشور فى:التاريخ المقارن للشرق الأوسط، تحرير : بيتر جران، رءوف عباس، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، 2005، ص45، 60 – 62.

(111) د. ناصر أحمد إبراهيم : الفرنسيون فى صعيد مصر، ص 45، 46، 235.

(112) المرجع السابق، ص 81، 82، 120، 121 وغيرها من الصفحات.

(113) المرجع السابق، ص 172، 231، 235، 236 وغيرها.

(114) د. عفاف لطفى السيد: مصر فى عهد محمد على، ت: عبد السميع عمر زين الدين، م: السيد أمين شلبى، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومى للترجمة، عدد 554، القاهرة، ط1، 2004، ص 20، 31، 32، 43، 44. وقد طبع الكتاب باللغة الإنجليزية فى عام 1984. وقد ظهر ذلك مبكراً فى أعمال عديدة، انظر :

Afaf Lutfi Al- Sayyid ;the beginning of modernization among the rectors of al-Azhar, 1798-1879.in:Beginnings of modernization in the Middle East..the nineteenth

century,edited by:William R.polk& Richard L.Chambers. Chicago,1968. the political and economic functions of the Ulama in the 18th century ,Journal of the economic and social history of the Orient , vol.xvi, parts II-III,1973.

(115) عفاف لطفى السيد : مصر فى عهد محمد على، ص44- 47.

(116) منذ أكثر من ربع قرن أثار د. عاصم الدسوقى قضية أن النقد التاريخى فى مصر يقتصر على دراسة منهج البحث بطريقة تقليدية، وأنه لا توجد علاقة بين المعرفة والنقد، مما جعل دراسات أغلب المؤرخين المصريين تتميز بالضخامة مع الافتقار إلى نظرية تحكم التفاصيل، أو الافتقاد إلى الاتساق الموضوعى والوقوع فى التناقضات نتيجة التأثر بأكثر من نظرية وكأثر مباشر لتعدد مصادر المادة التاريخية.د.عاصم الدسوقى : مصر المعاصرة فى دراسات المؤرخين المصريين.. دراسة فى الكم، القاهرة، دار الحرية، 1976، ص 4، 5.

* * *

obeikan.com